صاحبها ورئيس تحريرها
مدحت عكاش
MADHAT AKKACHE

الثقافة
مجلة ثقافية أدبية شهرية
دمشق - ص ب ٢٥٧٠ هاتف ١٦٢٩١

العدد العاشر
آذار (مارس) ١٩٦١
السنة الثالثة

جرائم الثأر ومكافحتها

بقلم : الدكتور عبد الكريم اليافي

ان بالشعب الذي دون سلع — لقتيلا دمه ما يطل
خلف العبء علي وولى — أنا بالعبء له مستقل
ووراء الثأر مني ابن أخت — بطل عقدته ما تحل
مطرق يرشح سما كما أط — رق أفعى ينفث السم صل
بزني الدهر وكان غشوما — بأبي جاره ما يذل
منيت منى هذيل بخرق — لا يمل الشر حتى يملوا
فاحتسوا أنفاس نوم فلما — هوموا رعتهم فاشمعلوا
فادركنا الثأر منهم ولما — ينج محليين الا الاقل
تضحك الضبع لقتلى هذيل — وترى الذئب لها يستهل

بين يدي دراسات جديدة جيدة لظاهرة الثأر في الجمهورية العربية المتحدة وتوصيات حول معالجتها ، وعلي أن اعرف جملة هذه الدراسات في تقرير عام يلخصها ويبرز جوانب الجدة والجودة فيها ويعقب عليها بما يراه جديرا بالتعقيب .

هذه الدراسات هي ما يلي :

بحث أنثرمولوجي عن الثأر صنعه المركز القومي للبحوث الجنائية سنة ١٩٥٨ في احدى قرى الصعيد ، وهو تقرير ضاف يقع في ٥٣ صفحة ويتألف من مقدمة تتناول طريقة الدراسة التي اتبعت وتظهر قيمتها العلمية ومن اربعة فصول . يبحث الفصل الاول منها « الظروف البيئية والاقتصادية العامة » لقرية بني سميع ، ويشير الى علاقات التأثير المتبادلة بين هذه الظروف الاساسية العامة وبين ظاهرة الثأر في القرية ويوضح أهم الملامح

التي تميز القرية مما يظن أن له اتصالا بظاهرة الثأر .

ويبحث الفصل الثاني « القرابة وعلاقتها بنظام الثأر » فيبين فكرة تماسك الاسر في القرية والتسلسل القرابي فيها ويصور مجالس الاسر وسلطانها .

ويدرس الفصل الثالث « قانون الثأر » فيشرح آلية الثار وعداوة الدم في ضوء مبدأ انكار قيمة الفرد كفرد والتهوين من امره في سبيل اعلاء قيمة الجماعة القرابية .

ولهذا التقرير الواسع الاساسي عدة ملحقات طريفة ومسلية ومفيدة ، تشرح « الانماط الثقافية والاجتماعية في العائلة » و « الحياة الجنسية » و « علاقة الطفل بالبيئة المنزلية والبيئة العامة » وجوانب من الفلكلور السائد في القرية . وهي كلها تكمل ذلك البحث الانتروبولوجي لظاهرة الثأر في القرية وتدعم وجهة النظر المعروضة .

ويتخذ هذا البحث أهمية خاصة اذا علمنا انه يلخص الدراسة الانتروبولوجية الاولى التي ظهرت باللغة العربية لتلك الظاهرة في الاقليم الجنوبي وان تلك الدراسة تقيدت الى مدى بعيد بالشروط العلمية الصحيحة فعرفت كيف تختار مجتمعا صغيرا مناسبا لتفهم هذه الظاهرة وهو قرية بني سميع وكيف عمدت الى تشريح الكيان الاجتماعي الحي المشتبك لتلك القرية لتنتهي الى لمس تلك الظاهرة التي هي غاية البحث والى شرحها شرحا يتفق مع نتائج الدراسات الانتروبولوجية المعروفة.

ولا شك ان انجاز هذا البحث ونجاحه هيئا تهيئة قوية لدراسة ظاهرة الثأر في هذه الحلقة الاولى لمكافحة الجريمة . فلقد قدم الى هذه الحلقة ثلاثة تقارير فرعية مهمة .

اما الاول فهو « العوامل المشجعة لظاهرة الثأر في الاقليم الجنوبي » مؤلفه هو الاستاذ الذي اشرف على تلك الدراسة الانتروبولوبية التي صنعها المركز وهو الصديق الدكتور احمد أبو زيد . وهو لذلك يعول على تلك الدراسة التي اشرف عليها فيلخص عناصرها ويحبك اجزاءها ويؤكد نتائجها .

واما التقرير الثاني فهو « خطورة مشكلة الثأر في المجتمع العربي » مؤلفه الدكتور محمد عاطف غيث مدرس الاجتماع بجامعة الاسكندرية يبحث المشكلة في الاقليم الجنوبي « بصورة عامة مستفيدا من كشوف علم الاجتماع في ميادين البناء الاجتماعي والتغيرين الاجتماعي والثقافي ومن دراسات حقلية » قام بها المؤلف نفسه في بعض اجزاء المجتمع القروي في الاقليم الجنوبي .

واما التقرير الثالث فهو « تقاليد واجراءات الاخذ بالثأر في الاقليم الشمالي » مؤلفة السيد صفوح الاخرس محاضر في قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية بجامعة دمشق ، يعتمد خاصة على ما توافر لديه من احصاءات نادرة عن ظاهرة الثأر وعلى دراسة اربع حالات مختلفة وعلى مقابلات حرة مع العاملين في هذا الميدان .

وتفاوت هذه التقارير الفرعية يعطيها جميعا اهميتها في بحث هذه الظاهرة . على ان ثمة الى جانب هذه التقارير توصيات لجنة بحث الثأر التي تعمل باشراف المركز . وهي تقصد الى معالجة هذه الظاهرة الخطرة وتتلمس السبل الاكيدة العميقة للقضاء عليها . وهذا كله معناه انه برغم قلة الدراسات التي تناولت مشكلة الثأر توافر عندي من التقارير الجديدة الجيدة المتفاوتة ما يهييء عناصر كافية لابراز مكاسب هذه الدراسات المحلية واظهار قيمتها وتقديم التوصيات المناسبة أي ان الفضل كله في صوغ هذا التقرير العام انما يرجع الى هذه التقارير الفرعية والى المعلومات الاساسية التي زودني بها المركز . فمثلي ههنا مثل التاجر تهيأت عنده بضائع جميلة جيدة وعليه أن يعرف كيف يعرضها منسقة مرتبة على النظارة وربحنا الضخم نحن المقررين جميعا وربح المركز القومي خدمة العلم من جهة وخدمة مجتمعنا العربي الناشيء من جهة ثانية .

يعمد الدكتور أبو زيد في صدر تقريره الى ايضاح النهج العلمي الذي سلكه في الدراسة التي كان المركز قد كلفه الاشراف عليها فهي « مركزة في مجتمع محلي

واحد صغير محدود » وقد تناول « نظمه المختلفة بالدراسة والتحليل للتعرف على نوع العلاقات التي تقوم بينها باعتبار ذلك المجتمع المحلي يؤلف وحدة متماسكة لها بناء اجتماعي متمايز يتألف من عدد من النظم المتفاعلة التي يؤثر احدها في الاخرى ومن اجل ذلك ينبهنا على الاحتراس مما قد يوحي به العنوان الذي اختاره لتقريره وهو « العوامل المشجعة لظاهرة الثأر في الاقليم الجنوبي » فليس هنا ظاهرة متقدمة هي علة او سبب من جهة وظاهرة متأخرة هي معلول أو مسبب من جهة اخرى وانما ثمة ارتباط وتلازم بين الظواهر والنظم او «تابعية» اذا أردنا ان نستعمل هذا اللفظ الرياضي للدلالة على المعنى العلمي الحديث لفكرة السببية • وعلى الباحث ان يجلو مثل هذا الارتباط والتلازم وكيفيتهما • وعندئذ يخلص من هذا كله الى بعض النتائج التي يصح اعتبارها فرضا علميا يجوز اختباره في المجتمعات المحلية الاخرى قبل اصدار الاحكام العامة •

بهذه الروح العلمية وعلى هذا النهج المتبصر المحكم جرى المؤلف في معالجة بحثه القيم • ولذلك يجد نفسه ملجأ منذ البداية الى تحديد معنى كلمة « الثأر » المستعملة في البحوث الانتروبولوجية • ومثل هذه الرغبة الدقيقة في الضبط والتحديد لمعنى كلمة الثأر نجدها في التقرير الثاني وهو « خطورة مشكلة الثأر » فالثأر نوع من الانتقام يقوم على اساس رد العدوان بالعدوان ولكنه يتسم بسمتين اساسيتين : الاولى هي ان العدوان الاول لم يلحق الشخص الذي يقوم بالرد عليه او يتوقع منه ان يتولى الرد عليه بعدوان مماثل والثانية ان المجتمع كله يعترف بحق رد العدوان بعدوان مماثل طبقا لشروط معينة وهذا ما يعطي الثأر صفة « النظام الاجتماعي » ويميزه من غيره من انواع الانتقام الاخرى مثل الانتقام الفردي اذ يعمد الفرد الذي لحق به الاذى الى رد الاذى على المعتدي نفسه أيا كان نوع هذا الاذى ودرجته وكالانتقام المثلى الفردي حين يتعين رد الفرد نفسه الاذى بمثله ، ففي حالة الثأر الذي نستعمله في بحوثنا « يكون الرد حاملا مظهر النسق القرابي والمسؤولية الجمعية » على حد تعبير الدكتور غيث •

ومع قلة بحوث الثأر الجديدة في المجتمع العربي وهو ما يشير اليه الدكتور ابو زيد وقلة المعلومات الاحصائية المتوافرة في هذا الصدد وهو ما ينوه به الدكتور غيث نمضي في قراءة التقريرين الممتعين اللذين يكادان يتفقان في النتائج التي يفضيان اليها •

هذه الظاهرة التي حددنا معناها هي من خصائص بعض المجتمعات • واذا التمسنا نوع المجتمع الذي نلقى فيه هذه الظاهرة وجدنا ما يدعوه العالم الاجتماعي الالماني تونيز بلفظ Gemeinscohaft او ما ندعوه بالعشير او المجتمع المحلي (١) برغم تفاوت الباحثين في النظر الى خصائص هذا النوع من المجتمعات •

على ان هذا المجتمع الضيق ذا البناء الانقسامي الذي تبدو فيه ظاهرة الثأر يشترك مع العشير في كون التنظيم يقوم فيهما على ثلاثة اسس واضحة وهي رابطة الدم ورابطة المكان وقلة التفاضل الاجتماعي والاقتصادي بين الجماعات المكونة لذلك المجتمع ، ثم ان الحياة الاجتماعية فيهما تعتمد على التضامن والتناصر والتساند وعلى ارادة في التعايش عميقة غامضة مستسرة مشتركة لا على التعاقد ولا على الوعي الفردي ولا على الارادة الشخصية الحرة الطليقة تسيطر فيهما وطأة العادات والتقاليد بدلا من حركة « الازياء » التي نشهدها في المجتمعات المتطورة ذات الطبقات الاجتماعية الواضحة • ويسود فيهما العرف العام الشائع المبثوث عوضا من « القانون » ببنوده ومواده وتفصيلاته • ان المرء في هذا المجتمع المحلي « لا يكاد يتمتع بشخصية فردية متميزة

---

(١) يدعوه الدكتور ابو زيد بالمجتمع المحلي وهذا ما يدعوه الى ضرورة وضع معجم للمصطلحات الاجتماعية الحديثة باللغة العربية • ووضع مثل هذا المعجم داخل في مشروعات المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ويمكن ان يساعد المركز القومي في هذا المشروع مساعدة جلى •

أو كيان شخصي مستقل وانما هو يتصرف ويعمل وينظر اليه على انه عضو او جزء من جماعة معينة هي في العادة جماعة قرابية ولكنها تؤلف في الوقت نفسه وحدة سياسية واقتصادية متمايزة وذلك بعكس الحال في المجتمعات الاكثر تطورا او تقدما حيث يزداد ظهور النزعة الفردية على حساب روابط القرابة » .

والمسؤولية في مثل هذا المجتمع جمعية لا فردية . وتتجلى هذه الصفة الجمعية خاصة في المسؤولية الجنائية التي نحن بصدد بحثها . وهنا تفيدنا دراسة تطور هذه المسؤولية الجنائية ولا سيما لدى دراسة ظاهرة الثأر عند بعض المجتمعات في استبانة نشوء القيمة الفردية للشخص وتفتحه بعد اذ يكون مغلقا . فليست قيمة الفرد التي نشاهدها في العصر الحديث متأكدة عند جميع المجتمعات ، ونشوؤها وتكونها البطيء انما استدعيا تطورا طويلا ورافق هذا التطور تغير في العقائد وتغير في النحل المعاشية . وهذه النقطة تستدعي بحوثا اخرى ربما يخرج اتساعها عن نطاق هذه الحلقة الخاص .

هذا المجتمع الانقسامي كما يدعوه الدكتور أبو زيد وهو نفسه المجتمع الريفي الذي يصفه الدكتور غيث ، ينقسم في العادة الى عدد من الوحدات القرابية المتماسكة التي تزاول ككل متمايز جميع مظاهر النشاط الاجتماعي والتنسيق القرابي السائد في تلك المجتمعات هو الذي يقوم على نظام العائلة الكبيرة وهو ما يطلق عليه في بعض انحاء الصعيد والواحات وجوانب الصحراء الغربية لفظ « البدنة » والمقصود بهذا اللفظ جميع الافراد الذين يردون نسبهم الى جد واحد في خط الذكور قد يرجع في الماضي الى عدة اجيال . « البدنة – كما يقول الدكتور غيث – هي في الواقع النسق القرابي الكبير الذي تنتمي اليه مجموعة من العائلات والتي تعتبر من حيث البناء الاجتماعي للقرية وحدته الاساسية » .

فالتنظيم الاجتماعي والاقتصادي واحد او متشابه ، والعلاقات الاجتماعية ووجوه النشاط الاقتصادي في مجتمع يستند الى الزراعة وحدها متقاربة متشابكة .

وهذا كله يؤدي الى تشابه الاحوال الاقتصادية والاجتماعية بين افراد البدنة . وهذا كله يفسح المجال للقيم الجمعية كي تسيطر وتسود وتطغى على القيم الفردية .

ومن نمط هذا التنظيم لا نستغرب مكانة السن (أي المعمرين) ولا الجنس (أي الذكور) ، ولاشأنهما في تعيين الابعاد بين الافراد والجماعات . وكذلك لا نستغرب ان يكون للعرف السلطة الاولى في ضبط العلاقات ولا كيف يصبح البحث عن النفوذ الجمعي والغلبة واثبات الكرامة للبدنة من الاهداف الكبرى التي تتلامح لضمائر الافراد في اطار القرية الضيق وكذلك كيف تصبح المهارة الزراعية وانجاب الذكور والتدين (الظاهري) والانتصار للبدنة مثلا عليا يتحقق بها للفرد وللجماعة مجال التميز وتوطيد المكانة .

ونحب هنا ان نتعجل فنذكر في هذا المكان فكرة طريفة وردت في تقرير الدكتور غيث وهي قضية التنقل او الحراك الاجتماعي Social Mobility عند كلامه على الظواهر الهامة المميزة لحياة المدنية ولكنا نذكرها هنا من وجهة السلب والنفي فمثل هذا الحراك الاجتماعي المتصل بفكرة التقدم الفردي والانتقال الى مستوى أعلى فكري او اقتصادي او مهني معدوم في مجتمع سكوني متوقف كهذا المجتمع الذي قدمنا وصفه . ولا مجال في جو اجتماعي راكد بهذا الشكل لاستثمار نشاط الفرد وانما يبقى الفرد آلة في عجلة بدنته أو مجتمعه الضيق ، طاقته متصلة بطاقتها ومصيره مرتبط بمصيرها . فالمجتمعات التي تسود فيها فكرة اخذ الثأر مجتمعات لا مكانة فيها لفكرة التقدم الفردي ولا للحراك الاجتماعي .

ولا شك ان هنالك عقلية مشتركة في البدنة او في القرية تتمثل خاصة في الشيوخ وكبار السن يحفظون الانساب بتفاصيلها والوقائع بتفرعاتها ويكونون أكثر اطلاعا على العرف العام وسننه وقواعده – وذلك كله يجعل الناس في القرية ينظرون الى القرابة لا على انها مجرد روابط الدم وانما تتمثل فيها زيادة على ذلك المفاخر والمآثر والقيم التالدة والطارفة . ولذلك يستميت

فرد معناه الاعتداء على البدنة كلها • ولا وجود للفرد بهذا الاعتبار متميز عن مجموعة الاعضاء •

هذه الملامح العامة للتنظيم ماثلة في قرية بني سميع التي اختارها المركز القومي ميدانا للدراسة ويمضي تقرير الاستاذ الذي اشرف على تلك الدراسة في سرد خصائص النسق القرابى فيها واستناده الى خط الذكور ، ويذكر أمثلة طريفة تشف عن قلة الانتباه الى القرابة الواشجة بالمصاهرة •

ويصاحب قوة القرابة العاصبة تكتل الاقارب في منطقة واحدة • فالجوار متصل بالقرابة أشد الاتصال ولذلك امكن تقسيم القرية أقساما موضعيةمتناسبةمع أقسام القرابة • فالقرابة يؤكدها ويقوي نوازعها التكتل المكاني • وهو تعبير ماثل شاخص للابصار عن التجمع المستند الى الدم ، كما انه يضم مصالح واحدة مرتكزة على نمط من الاقتصاد الزراعي بسيط يجمع أفرادالبدنة من جهة ويعرضهم من جهة ثانية للمنازعات مع افراد البدنات الاخرى • فهو في النهاية يزيد في تسعير اوار الثأر •

لننظر من كثب في العامل الاقتصادي الذي ازدادت أهمية دراسته في العصر الحديث نجدان الملكيات الزراعية صغيرة ومتفرقة تنتثر حقولا حول القرية تخص افرادا من بدنات مختلفة • لذلك يزيد هذا الانتثار في فرص الاحتكاك والتصادم ، ولا سيما بعد انحسار مياه الفيضان كل عام وضياع معالم حدود الحقول غب انغمارها بتلك المياه والحاجة الى اعادة تخطيط تلك الحدود •

وكذلك يبدو ان اعتماد ماكينات الري بدلا من ان يزيد تعاون الافراد في تلك القرى يزيد في تنازعهم واختلافهم • بل تهيء تلك الآلات مكامن يلجأ اليها الحاقدون للفتك باعدائهم والثأر بهم •

يضاف الى ذلك موسم الذرة عند نتجها فهي تقدم للمتخاصمين بين قضبانها الناشبة الحالية متربصات خفية للقتل والاغتيال •

ان من صفات هذه المجتمعات الضيقة التخلف وانتشار الفقر وانخفاض المستوى الاقتصادي وقلة التفاضل الاجتماعي • وبدلا من ان يتعاون ابناء القرية من مختلف البدنات على الدفع بالتي هي أحسن واصلاح ذات البين والعمل لزيادة الانتاج نجدهم من ركودالحال والتخلف وتشابه الامور الاقتصادية سادرين في خبال عجزهم وفي سباتهم الاجتماعي • ويضيف الدكتور ابو زيد حاشية مهمة في تقريره وهو ان نظام الزراعة كما هو جار الآن يؤدي الى تهيئة حالة بطالة مقنعة بين الاهالي ولا سيما عند الفيضان فيجتمع الناس في اوقات الفراغ ويتساقطون أخبار حوادث القتل الماضية وتثور الشحناء في النفوس وتنبعث رغبات الثأر والانتقام حية عنيفة في النفوس •

يقابل ذلك كله من قبل الدولة ضعف السلطات المحلية وصعوبة انتقال القوات الكافية في الوقت المناسب عند نشوب النزاع المسلح ، ولا سيما في موسم الفيضان وانعزال القرى بعضها عن بعض •

وبالجملة نجد الاعتماد على وشائج القربى الواسعة في البدنة ، والارتباط بالارض مع طبيعة الاقتصادالزراعي الخاص وما يشتمل عليه من بعض المواسم المواتية ووجود ماكينات الري ثم العزلة الاجتماعية والاقتصادية للقرية وقلة التفاضل الاجتماعي والاقتصادي والسياسي وأخيرا ضعف الاداة الحكومية في هذه القرى كل ذلك عوامل حافزة على استمرار مشكلة الثأر •

ولكن هذه الملامح النموذجية في قرية بني سميع لا شك في انه يمكن العثورعليها بدرجات في قرى الاقليم الجنوبي • وهذا التشابه هو الذي يحمل مؤلف التقرير الثاني « خطورة مشكلة الثأر » على تلمح هذه السمات في المجتمع الريفي عامة ويجعله ينوه بكون الثأر نظاما اجتماعيا يتساند وظيفيا مع أجزاء النظام الاجتماعي الكلي وتتغير دوافعه وأدواته وعملياته وأهدافه بتغير هذا النظام وهو يشتد كلما طغى العرف على السلطةالرسمية•

والخلاصة اننا نتتهى كما ينوه علماءالانتروبولوجيا الى أن نظام الثأر قائم في البناء القرابي الذي يعتبر الفرد مجرد جزء من وحدة كبيرة متماسكة ، وكل اعتداء على الافراد في الدفاع عنها وعن اسمها • فالاعتداء على أي

الجزء يعتبر واقعا على الكل ، فالمسئولية جماعية مبثوثة في الجماعة المؤلفة لتلك الوحدة كلها .

ان التقرير الاول عن العوامل المشجعة للثأر تبرز فيه الدقة العلمية والاحكام الرصين . وقد ذكرنا انه يستند الى دراسة وافية هي بمثابة التشريح لقرية بني سميع فهو يعرض علينا العناصر المترابطة التي يتألف منها جسم القرية ويترتب عليها نظام الثأر الذي يؤدي وظيفة اجتماعية هي نوع من الضبط . وبطبيعة هذه الدراسة التشريحية المقصورة على قرية نائية منعزلة في الصعيد طوى التقرير صفحا عن فكرة التطور الذي يساور كل شيء فيصيبه بالتغير والتبدل وعدم الجمود . وقد انتبه التقرير الثاني بسبب اتجاهه العام فذكر ان الاقليم الجنوبي « تعرض منذ مطلع القرن العشرين ولا يزال يتعرض لعوامل التغير الاجتماعي . وأهم التغيرات التي حدثت ازدياد سلطة القانون الناجمة عن تطوير الادارة وأجهزة الحكم وامتدادها لتعمل بدرجة نسبية من الكفاءة في قلب الريف » وكذلك نوه هذا التقرير بعامل ازدياد السكان وركوبهم متن الهجرة الى المدن وبعامل تدخل الصناعة في تنمية الانتاج وبانتشار التعليم . كل ذلك ادخل تغيرا على نظام الثأر في مظاهره لافي روحه وماهيته . فطرأ نظام الاستئجار للقتل في بعض الاحيان او لاتلاف المزروعات وسرقة الماشية وغيرها . ثم ان هذا التقرير يفرق في درجة التطور بين الوجه البحري والصعيد . فالصعيد أقل تأثرا بعوامل التغير الاجتماعي من الوجه البحري . ولهذا السبب نفهم كيف اختار المشرفون على دراسة الثأر قرية في الصعيد موقعها الجغرافي وتركيب سكانها القرابى وحياتهم الاجتماعية والاقتصادية نموذجية في هذا الشأن .

وربما كان مثل هذا التطور بين الوجه البحري والصعيد قد حصل بين اجزاء البلاد العربية ولا غرو اذن ان ينتهي التقرير الثالث الذي يعالج « تقاليد واجراءات الاخذ بالثأر في الاقليم الشمالي » الى ان الثأر مع انه « يكون نظاما اجتماعيا كاملا عند عشائر البدو في الاقليم الشمالي » ومع انه « مجموعة متشابكة من السلوك الجمعي والعرف والقانون .. بالاضافة الى انه يخدم وظيفة اجتماعية هي وظيفة الضبط الاجتماعي التي تساهم في اقرار الامن ونشر العدالة بين افراد العشيرة الواحدة من جهة وبين افراد العشائر الاخرى من جهة أخرى » فهو « لا يكون مشكلة بالمعنى الكامل لهذه الكلمة في الاقليم الشمالي » هذا ويدل احصاء الجنايات في الاقليم السوري على أن جرائم الاخذ بالثأر هي ٣ر٩ بالمائة بين مختلف الجرائم وانها ١٢ر٢٧ بالمائة بين جرائم القتل والانتحار . على حين ان الدراسة المستفيضة عن قرية بني سميع تشير الى خطورة هذه الظاهرة بالارقام في الاقليم المصري وذلك في حاشية مقدمة الدراسة فتذكر ان نسب جرائم القتل والشروع فيه بدافع الثأر تؤلف ٣٤ر٨ من مجموع مختلف جرائم القتل والشروع فيه .

ثم نجد ان التقرير عن الاقليم السوري ينوه بتطور ضمائر المحكوم عليهم في حوادث الاخذ بالثأر وبالندم ينساب الى نفوسهم كما ينوه بالظروف التي حاقت بهم واستثارتهم وحملتهم على الثأر حملا . وذلك كما يبدو من مطالعة اضباراتهم ومن خلال أحاديثهم مع واضع التقرير نفسه . ثم نطالع في التقرير دراسة التقاليد والاجراءات المتبعة في أخذ الثأر عند بعض القبائل الضاربة في صحراء الشام . وفي تفصيل ذلك متاع للباحث الانتروبولوجي ، ولكنا نجد من خلالها اتجاه القاتل الى الفرار مع أهله وطلب الحماية من عشيرة أخرى او شخص ذي نفوذ والميل الى التراضي ومساعي الصلح وقبول الدية برغم الاعتقاد بان الدم لا يغسله الا الدم . وهذا الاتجاه كله يشير الى تداعي نظام الثأر واندثاره .

وعوامل هذا التداعي او الاندثار محتاجة الى دراسة مستقلة . ولا شك في انها متصلة بالتطور الاجتماعي العام . واذا كان مثل هذه الدراسة غير متيسر في الوقت الحاضر فان هذا لا يمنع من الاستناد الى البحوث السابقة المتيسرة التي عرضناها ولخصناها ومن تلمس سبل مكافحة جرائم الثأر في الاقليم الجنوبي وبقاياها في الاقليم الشمالي . ولا ريب في ان النفع

الاجتماعي والاصلاح هما غاية بحوثنا وهدف دراساتنا الاجتماعية والا « فهي لا تستحق ساعة من التعب » كما يقول دركايم •

معالجة المشكلة – وهنا نستفيد في تبين سبل المعالجة من توصيات لجنة بحث الثأر في المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية ، ولقد تأملت هذه اللجنة قضايا الثأر وتدبرت أمر مكافحتها وعرفت انه من الصعب الاكتفاء بوضع القوانين والتشريعات للقضاء عليها لان القوانين الجارية توقع أشد العقوبات على القتل ولا تبيح أخذ الثأر ومع ذلك فالظاهرة قائمة وتمارس بالفعل لارتباطها بالبناء الاجتماعي وبنسق القيم الاجتماعية والخلقية المتعارف عليها في ذلك المجتمع •

هذا الارتباط العميق هو الذي برز من ثنايا الدراسات الانتروبولوجية والتقارير المقدمة • وكما ان الطبيب يتجاوز الاعراض والظواهر المرضية الى اسبابها الخفية المرتبطة بها ويبحث عن علاقة الداء بصحة الشخص العامة أو بقصور بعض الاعضاء او الغدد عن اداء وظائفها اداء سويا او بصولة بعض الجراثيم في الجسم ويستفيد من بحوث كثير من العلوم المتصلة بالطب فيعالج الداء بالداء او بضده • وفي كثير من الاحيان يلجأ الى طرق غير مباشرة للتأثير كذلك عمدت لجنة الثأر بعد اذ استبانت العلاقة الصميمة بين ظاهرة الثأر والتركيب الاجتماعي والقرابي والاقتصادي الى التأثير في هذا التركيب وتبديله ، فان ذلك بطبيعة الحال سوف يجلب تبديلا في تلك العلاقة الصميمة فتتحول ظاهرة الثأر وتتداعى أو تأخذ شكلا سويا • واللجنة في ذلك تقترح أربع ذرائع اساسية •

الذريعة الاولى – تغيير النمط الاقتصادي وذلك بتصنيع المجتمع وهذا يؤدي الى اخراج القرية من عزلتها الاجتماعية وربطها بالمجتمع الخارجي • فان جلب المواد الاولى وتصريف السلع المصنوعة وتنشيط التبادل التجاري يؤدي ذلك كله الى ايجاد صلات جديدة بين مجتمع القرية والمجتمع العام ، كما انه يؤدي الى اجتذاب مهاجرين من القرى المجاورة او دفعهم عن القرية بوجه عام اذا نشأت الصناعة بالقرب منهم ، وبذلك تتشتت العلاقات القرابية بالضرورة •

ثم يؤكد تقدم الصناعة زيادة الشعور بالفردية لدى الافراد وتقليل شعورهم بالارتباط القرابي الجمعي الكبير لتوزيع العمل وتنوعه ولان كل عامل مسئول عن عمله الذي خص به وله أجر معلوم متميز •

وكذلك يقضي تقدم الصناعة على البطالة المقنعة او البطالة السافرة لان الاجر تابع للعمل فلا جلوس في المقاهي ولا تساقط لاخبار الاسر ولا اذكاء لروح الانتقام •

ويصح ان ننوه هنا بان الصناعة انما هي مقصودة بأنواعها المختلفة ، ويمكن في هذه القرى الزراعية النائية المنعزلة تشجيع الصناعات البسيطة المتصلة بالزراعة للقضاء على البطالة التي هي أم الشرور •

الذريعة الثانية – تغيير نظام الري الشائع في تلك المنطقة وتستشرف اللجنة الى المستقبل فتجد ان ذلك واقع لا ريب فيه وذلك بعد اتمام السد العالي الذي سوف يحول المنطقة من نظام ري الحياض الى نظام الري الدائم • وعندئذ لا تضيع معالم الحقول بانغمارها بمياه الحياض وهذا سوف يقضي على سبب جزئي من أهم أسباب المشاحنات التي تنشأ في تلك المنطقة •

وكذلك يزول الاعتماد على الماكينات في ري الاراضي • وقد سبق ان اشرنا الى ما جاء في أحد التقارير من شأن هذه الماكينات في اذكاء نيران الخصومة والثأر ولا سيما انها تتخذ مكامن للاغتيال •

وسوف يقضي نظام الري الدائم على البطالة المقنعة وعلى الفراغ الذي يعيش فيه معظم أهل القرية وعلى ما يؤدي اليه من فرص تناقل الاخبار وشعور الفرد برقابة المجتمع •

الذريعة الثالثة – تدعيم الاداة الحكومية • وتتمثل هذه الاداة في نقطة البوليس بالقرية ، ويكون التدعيم بزيادة قوة الشرط وبتزويدهم بالعتاد الحديث من

النزعة الانسانية

بقلم : الدكتور بديع الكسم

النزعة الانسانية تمثل تيارا فكريا عرفته الحضارات المختلفة على تفاوت في القوة والاصالة والاستمرار • وغرضنا هنا أن نشير الى المذاهب الرئيسية التي جسدت هذه النزعة في تاريخ الفكر الغربي كيما تبرز ما فيها من تطلع ايجابي خصيب نعتقد ان بوسعه تغذية الفكر العربي المعاصر في وثبته وانطلاقه •

تبلورت النزعة الانسانية في الغرب اول ما تبلورت في انتاج طائفة من المفكرين الذين ظهروا في ايطاليا أولا ثم في كثير من البلاد الاوربية الاخرى ابان عصر النهضة من أمثال بترارك وبوكاتشي وايراسم وبيدولاميراندول وتوماس مور وغيرهم • وكان الهدف العميق من هذه النزعة التركيز على كرامة الفكر الانساني والاعتراف الكامل بقدرته وقيمته •

لذلك حاولت ان تتمرد على سيطرة العقلية المدرسية في العصر الوسيط وأن تستلهم الثقافة القديمة عند اليونان والرومان • انها اذن في دفعتها الاصيلة ايمان بالانسان في استقلاله الفردي وحريته العقلية ثم محاولة لتكوين هذا الانسان عن طريق التربية المدرسية • ولا بد ان نشير الى الانتكاسة التي اصيبت بها هذه النزعة في أواخر القرن السادس عشر عندما تناست أهدافها الانسانية ووقفت عند الوسائل وقفة جامدة مغلقة فاستحالت الى دراسات تاريخية ولغوية او الى تربية تعنى باللغات القديمة وبالجوانب الجمالية والشكلية لادابها ، على حساب الاهتمام العلمي بالطبيعة والتفتح لتجربة الحياة • يبقى مع ذلك أن أكثر اتباع المذهب الانساني المعاصرين يعترفون بانتسابهم الروحي الى النزعة الانسانية في عصر النهضة بوصفها دفاعا عن الفردية ضد عبودية الاقطاع ودفاعا عن حرية التفكير ضد سلطة التعصب ودفاعا عن نبالة الانسان ضد قوى الطبيعة • وتظهر النزعة الانسانية في صورة جديدة عند الفيلسوف الفرنسي اوجست كونت عندما أراد ان ينشىء ما سماه بديانة الانسانية •• فالانسانية عند كونت لا تعرف بالانسان وانما يعرف الانسان نفسه بالانسانية • فالانسانية هي الكائن الاعظم المتصف بصفة الاستمرار • وعلى الفرد ان يحيا في سبل هذه الانسانية عن طريق التضامن مع غيره من الافراد • صحيح ان بعض الناس يعجزون عن الاندماج في هذا الكائن الاعظم لانهم لا يرتفعون في حياتهم الى مرتبة السلوك الغيري القائم على الايثار والمحبة ولان امكانياتهم الروحية والعقلية لا تسمح لهم بأن يشاركوا في تقدم الانسانية ••

سيارات تخف مسرعة الى مكان الفتنة ومن أسلحة آلية ترهب مثيري الفتنة • كما انه لا بد من جزاء المسيئين •

الوسيلة الرابعة ـ القيام بدراسات أخرى تتناول هذه الظاهرة في عدد من المجتمعات التي تتمتع ببناء اجتماعي يختلف عن مجتمع القرية الذي درس وهو المجتمع الريفي • فتدرس المجتمعات البدوية الصحراوية والمجتمعات الريفية البدوية بغية الاحاطة بجميع العوامل التي تتحكم في ظاهرة الثأر وبغية استكمال صورة الظاهرة في انحاء الاقليم المصري عموما •

(التعقيب على هذا المقال على الصفحة ٥٧)

ولكن الانسانية انما تستند في الواقع الى الافراد الممتازين من الناس الذين يخضعون غرائزهم ونزواتهم لنشاط العقل والضمير • ومن هنا كانت الديانة الوضعية تخلد ذكرى الرجال الذين اسهموا في تحقيق الانسانية• لقد كان اوجست كونت يؤمن بأن العلم الوضعي يحرر البشرية من الفوضى العقلية وبأن مبدأ الايثار يحررها من الفوضى الاخلاقية وأن ديانة المحبة الانسانية سيحررها شيئا بعد شيء من الفوضى الدينية والسياسية • لا شك أن صورة النزعة الانسانية عند كونت تختلف في تفاصيلها عن صورة النزعة الانسانية التي مهدت لعهد النهضة • ولكنها تلتقي معها في مبدأ اساسي هو الايمان بالانسان وبقدرته على ان ينقذ نفسه بنفسه ••

* * *

ونحن نجد هذا المبدأ أيضا في مذهب الفيلسوف الانجليزي فروينائد سكوت شيلر ، والمسمى بالمذهب الانساني •

وخلاصة هذا المذهب أن المشكلة الفلسفية هي تلك التي تتعلق بكائنات انسانية تبذل جهدها لفهم عالم من التجربة الانسانية بالاستناد الى الفكر الانساني • فالنزعة الانسانية عند شيلر تجعل الانسان مركزا لعالم الفكر وترتبط بذلك بالنزعة الانسانية عند فلاسفة النهضة في محاولتها تحرير العقل من قيود التقليد الجامد • وقد أشار شيلر نفسه الى هذه العلاقة كما أشار من جهة ثانية الى أن مذهبه تجريد لفلسفة بروتا غوراس القائل بأن « الانسان مقياس للاشياء جميعا » • والمذهب الانساني عند شيلر امتداد وتوسيع لفلسفة الذرائع عند وليم جيمس • ذلك انه يرى ان القضية النظرية تستمد صحتها من النتائج العملية التي تؤدي اليها • وينتج عن ذلك ان كل معرفة تخضع في نهاية الامر الى الطبيعة الانسانية وحاجاتها الرئيسية • ولكن مذهب شيلر يتميز عن مذهب الذرائع او البراجمانية في أنه لا يكتفي بتطبيق المبدأ البراجماني في مجال المنطق والمعرفة ولكنه يوسعه حتى يشمل مجال الاخلاق والجمال والميتافيزيقا والدين • ولعل أبرز خاصة تطبع النزعة الانسانية عند شيلر هي الثورة على المذهب الاطلاقي الذي يعد الحقائق والقيم ثابتة مطلقة ومستقلة عن الوجود الانساني • يقول شيلر : ان الحقيقة المطلقة ليست عديمة النفع فحسب كمعيار للحقيقة التي لدينا ، لاننا لا نملكها ولا نستطيع ان نوازن بينها وبين ما لدينا من حقيقة • ولا ان نقدر أين ولا الى أي مدى تقصر حقيقتنا عن مثالها الالهي ، بل هي ضارة ضررا محققا لانها تحمل في طياتها نتائج هدامة بالنسبة لها ذاتها • والقيمة هنا أيضا أن المشكلات الانسانية يجب ان تترك للانسان كيما يعالجها معالجة انسانية محضة أي كيما يجد لها حلا منبثقا عن حاجات الانسان وقواه الحقيقية •

* * *

ننتقل الآن الى صور النزعة الانسانية في الفلسفة الغربية المعاصرة وأول ما نلاحظه ان كل مذهب تقريبا يدعي لنفسه انه المذهب الانساني الحقيقي مقابل المذاهب الانسانية الكاذبة • واذا أردنا ان نتجاوز المحاولات الفردية أو أن ندخلها ضمن حركات واسعة استطعنا أن نحصر النزعة الانسانية في تيارات فكرية ثلاثة هي الماركسية والوجودية والمذهب الشخصي •

فالماركسية تعلن عن نفسها انها فلسفة في الانسان تستند الى فلسفة في الكون والتاريخ • وتتجلى نزعتها الانسانية في انها تريد ان تبدأ من الواقع الانساني كيما تقوده نحو التحرر الكامل •

فهي تعتقد ان هناك جملة من العوامل تشوه حقيقة الانسان الكلي أهمها على الاطلاق نظام الحياة الاقتصادية الرأسمالية الذي يؤدي الى الاستعمار والذي يدافع عن كيانه بمذاهب ايديولوجية تبعد الانسان عن فهم واقعه وعن فهم وسيلة الخلاص من هذا الواقع • لهذا فهي تحارب كل ما تسميه بالمذاهب المخدرة – وكل مذهب يعارضها هو مذهب مخدر في رأيها – لتبدأ من موقف مادي ينكر الآله والاديان ويعد الايمان بها عاملا أساسيا من عوامل الضياع الانساني • الا ان نزعتها الانسانية

هذه لا تكتفي بهدم كل ما يتجاوز الانسان ولكنها تلغي الجانب الفردي ولا تؤمن الا بالمجموعة الانسانية • وفي هذه النقطة بالذات تتعارض مع النزعة الانسانية في الفلسفة الوجودية • فجان بول سارتر يعترف أيضا بأن الوجودية مذهب انساني ولكنه يميز بين معنيين للنزعة الانسانية الاول يرى أن الانسان غاية في ذاته وأنه يمثل قيمة عليا لان بعض الناس قد حققوا أعمالا عظيمة • وسارتر يزهق هذا المعنى الذي نجده عند اوجست كونت ويبني معنى ثانيا خلاصته أن الانسان ليس كائنا مغلقا على نفسه وانما يتجاوز نفسه باستمرار • ولكل فرد طريقة في تحقيق ذاته عن طريق أعماله ومتابعة اهدافه التي يخلقها لنفسه بحريته المطلقة • وواضح ان هذه النزعة الانسانية تهتم بالفرد الانساني اكثر مما تهتم بمصير الانسانية ، فتختلف بهذا عن الماركسية وان اتفقت معها في الموقف الالحادي • وهنا تأتي الفلسفة الشخصية الدينية التي يمثلها مونيه وماريتان ولويس وغيرهم لتحاول اقامة تركيب بين النزعتين تتجاوز الفردية الوجودية دون ان تقع في النزعة الجمعية لدى الماركسية فتعترف بالشخص الانساني بوصفه فردا له حقوقه وكرامته وان كان ارتقاؤه مرتبطا بتفاعله مع غيره من الاشخاص • ثم ان المذهب الشخصي يرى ان الفرد لا يكتسب معناه الا لكونه مرتبطا بشخصية مطلقة هي الشخصية الالهية • فالنزعة الانسانية هنا اهتمام بالانسان ومحاولة لخلعه من واقعه المشوه • ولكنها لا تجعل الانسان نفسه نهاية المطاف • ان ما يميزها ان التعالي لديها ليس افقيا كما هي الحال عند سارتر وانما هو رأسي • ولعل فلسفة كارل يسبرس الانسانية تمثل نزعة تركيبية اذ تعترف بالعلو الرأسي دون ان تخضع حرية الانسان لمجموعة من النظم الثابتة المطلقة •

تلك صورة عابرة عن النزعات الانسانية نعتقد انها تتلاقى جميعا على صعيد هام هو الاهتمام بالمصير الانساني لتحريره من كل ما يشوهه • ولعلها تتلاقى على اهداف واقعية راهنة تتلخص في ضرورة تحرير الانسان كل انسان ، من سيطرة رأس المال وفي الغاء النظام الاستعماري والاعتراف بحق الشعوب في تقرير مصيرها والنضال في سبيل سلام يبدأ من الاقرار يتفوق الانسان على الطبيعة وبضرورة سيطرته الكاملة على قوى الطبيعة من اجل رخائه وتقدمه •

وكلنا أمل ان تهدف الدراسات الانسانية التي اضيفت على التعليم الجامعي في كل فروعه الى أكثر من التثقف بالانتاج الاولي حتى تستطيع ان توجه جيلنا العربي نحو فهم المشكلات الانسانية الرئيسية والاسهام في حلها وفق مبادىء الحق والعدل •

بديع الكسم

علاش

قصة بقلم: حسن حمام

هفا قلبي اليه منذ ان رأيته لاول مرة تقوده المديرة من يده في الممشى المؤدي الى الصف الذي كنت اعلم فيه • كان طفلا جميلا ، بوجهه الابيض الوسيم ، وعينيه السوداوين الواسعتين ، وشعره الاسود الفاحم ، وثيابه المدرسية الزاهية التي زادته جمالا وروعة • كان طفلا جميلا ، أما انا فقد خلته ملاكا شاردا من بين اترابه هابطا لتوه ، فأسرعت اليه اتلقف يده من المديرة واحضنه ثم اطبع قبلة على خده وكأني على معرفة سابقة به ، أو كأنه طفل قريب لي ، حقا لقد شعرت تلك الساعة بعاطفة حب تجذبني نحو هذا الطفل ، عاطفة غريبة لم اشعر بها حتى نحو اخوتي الصغار على شدة حبي لهم • قالت المديرة •

انه جميل حقا ••• وانت تحبين الاطفال الصغار •••

ثم أردفت تعرفني به •

رمزي المتولي •••

فاعترتني رعشة اسرعت بمداراتها بترداد اسمه وبابتسامة صفراء باهتة ، وكلمة شكر للمديرة التي تركته بين يدي وانصرفت •

رمزي المتولي •••؟ وأي متولي هذا •••؟ وعدت اتفرس في وجهه وهو لا يزال واقفا ينظر حواليه • ومرت الصور والافكار سريعة متوالية تزحم بعضها في مجال الفكر • فالقيت نفسي على المقعد ووضعت رأسي بين يدي ، ثم عدت احدق فيه ، وكانت عيون الاطفال تنتقل مني اليه ومنه الي •

قال له طفل : ادخل واجلس في ذاك المقعد فليس فيه أحد • وقال له آخر تعال واجلس بجانبي فانت طفل جميل ، وأخذ بعضهم من قاع الغرفة يشيرون اليه بأيديهم ليقبل عليهم وهو دهش صامت ، وانا ما زلت ساهمة واجمة •

ثم قلت له ادخل واجلس في ذاك المقعد قرب غسان ، وصاح غسان مبتهجا تعال : •• تعال الى جانبي• ومشى الطفل وعيناي تتبعه كما تتبعه عيون الاطفال جميعا •

قال حسان : أنصفق له يا آنسة ••؟

– ولماذا يا احسان •• ؟

– لانه تلميذ جديد يا آنسة •

وابتسمت مكرهة ، فتحركت الايدي الصغيرة معلنة (تكريس) التلميذ الجديد •

وعدت اتفرس في وجهه ، رمزي المتولي •••؟ أهو ابنه ••• قد يكون ••• بل من المؤكد ••• فوجه هذا الطفل ينطق عن وجهه ، وجه سمير •• هاتان عيناه ، وهذا فمه ، وهذه جبهته ، وهذا شعره •

ناديت رمزي الي ، فقد قررت ان اعرف ، أن اسأله عن اسم أبيه ، فلم أعد أطيق صبرا • وجاء يسير بخفة ورشاقة ووداعة كأنه عصفور يقفز •

– ما اسمك يا شاطر •• ؟

فاجاب بصوته الناعم العذب

– رمزي •••

– واسم بابا •••؟

– سمير •••

فشعرت بحرقة ووجيف في القلب وغصة تكاد تخنقني ، وخرجت من فمي كلمتان متقطعتان مضطربتان كأنهما حشرجة •

– اجلس مكانك •••

وغصت في لجة من الذكريات المضطربة الصاخبة ، وأخذ سمير يتراءى لي بوجهه الباسم الوضاح وطلعته البهية وقامته الفارعة ٠

أخذت الصور المختلفة تمر أمامي كأنها شريط سينمائي سريع لكنه مضطرب مختلط ، بل أخذت الحوادث تمر بي وتصفعني تارة وتعصر قلبي تارة اخرى ، تثير فيه عاصفة هوجاء عاتية ، حتى رفعت يدي وكدت اضرب بقبضتها منضدتي لو لم يصح بعض الاطفال متشاجرين ، فانتزعوني من تلك الذكريات المريرة الى هذا الواقع الامر ، هذا الواقع الذي جعلني اعنى باطفال الناس أعلمهم واربيهم دون ان يكون لي مثل ما لهؤلاء الناس ، دون ان يكون لي طفل او اطفال أبذل لهم من روحي وقلبي ما أبذل ٠ فانا كما قيل :

كالعير بالبيداء يقتلها الظما

والماء فوق ظهورها محمول

وهذا رمزي كاد يكون ابني ، وكاد أبوه يكون زوجي ، يضمني واياه بيت واحد ، اعيش بسعادة وهناء بين اطفالي ، لا بين اطفال غيري ، لولا اهلي ، نعم لولا اهلي ، لولا كبرياؤهم السخيف وعجرفتهم المقيته وتعاليهم الذميم وادعاؤهم الباطل ٠

كنت في ميعة الصبا ، وكنت ما ازال طالبة في صف الشهادة الثانوية ، حينما كنت التقي بسمير صباحا ذاهبا الى وظيفته ، كانت تلتقي عينانا بنظرة خاطفة في أول الامر ، ثم نظرة قصيرة ، ثم طويلة صامتة عميقة ، فيها اشعة من لهيب الشوق وحنان الحب ، فكان قلبنا يذوب من اللهيب ، وينتعش بالحنان العذب الذي يذكي فيه الامل ويبعث النشوة الغامرة ٠ كنا في كل صباح تقريبا نتزود بتلك النظرة فتكون لقلبينا زادا يقتاتان بها حتى صباح اليوم الثاني ٠

ثم لا أنسى ذلك اليوم الذي جاءت فيه احدى زميلاتي وحدثتني عنه أو حاولت ان تستطلع مافي قلبي نحوه ٠ فصارحتها بحبي له ، ونفضت لها كل مافي قلبي ، فشجعتني – وانا في حبي له كنت شجاعة – وأثارت حماستي لهذا الحب الذي كاد يصبح فيما بعد جنونا ٠

كذلك لا أنسى ما حييت يوم رجعت مساء من زيارة بعض صديقاتي فوجدت احد اقاربي وزوجته في زيارتنا ، وقابلتني منهما ابتسامات عريضة ٠ وسمعت وشوشات وهمسات ادركت منها ان في الجو شيئا ما ، فرقص قلبي طربا وسطع البشر في عيني ووجهي ٠

ثم وضح الامر عند ما لحقت بي أمي الى غرفتي وجلست بجانبي تسألني :

– أتعرفين سمير العارف يا حنان ٠٠؟

فتجاهلت وقلت : لماذا يا اماه ؟

– ان قريبنا يقول ان سميرا معجب بك ، ويريد ان يخطبك ٠

– اسمع به ولا أعرف شخصيته ٠

– وماذا سمعت عنه ؟٠

فأطرقت ساكتة ٠٠٠

– ماذا سمعت وممن سمعت ٠

لا أدري ٠٠٠ لا أدري يا اماه ٠

ثم ألحت أمي فتشجعت واجبتها ٠

الناس يتحدثون عن بعضهم يا اماه ، فكما نسمع عن أي انسان أنه شخص طيب او خبيث ، كريم الاخلاق او ذميمها ، سمعت عن سمير ولا أدري متى وممن ٠

– ماذا يقول الناس عنه ٠؟

يقولون بأنه رجل عصامي كافح وناضل حتى اصبح في مركزه الحالي ، ووظيفته الكبيرة ، وانه ذو اخلاق رفيعة وسمعة طيبة ٠

– على كل حال يا حنان مهما كانت وظيفته ، أظنه لا يصلح لك يا ابنتي ، فهو ادنى منك اصلا وشرفا ونبلا ، واسرته لا ترتفع الى مستوى اسرتك وخاصة اسرة امك وربها سامي بك ، ولا سيما ان سميرا فقير لا يملك سوى مرتبه الذي لا تستطيعان ان تعيشا به الا عيشة كفاف وتقتير ٠ وهذه العيشة لم تتعوديها أنت عند

أهلك . كما ان الحياة في الوقت الحاضر لها متطلبات كثيرة لا يستطيع راتب وظيفته الكبيرة التي تتكلمين عنها ان يوفرها لكما ولابنائكما . فرجائي يا ابنتي اذا ذكر مثل هذا الموضوع او لمح اليه قريبنا عزمي بك وزوجته ان تقولي : ارغب في العلم واريد متابعة دراستي الجامعية.

فرنوت الى أمي وقلبي يلتهب حرقة ، وادركت أمي معنى تلك النظرة فرشقتني بنظرة حادة وقالت :

ما لك ...؟

- ولكن ...

ولكن ماذا ...؟ هكذا اقول ، وهذا رأيي وكفى. وها ان أباك قد اقبل يؤيد كلامي .

ودخل والدي الذي كنت انتظر منه ان يكون الى جانبي ، ولكنه وكأنه على علم بما قالت امي .

نحن يا حنان اسرة لها تقاليدها ، اسرة عريقة معروفة بالغنى والوجاهة ، معروفة بشرف الاصل ونبل المحتد ، ولا يمكننا ان نصاهر الا من كان من اسرة مساوية لاسرتنا في الحسب والنسب .

أيرضيك ان تكوني زوجة لابن العارف واسرته اسرة نكرة مغمورة فقيرة ضعيفة لا اصل لها ولا فصل . أترضين ان يقال ان حنانا البرغوثي ابنة اسرة البرغوثي المشهورة باصلها وحسبها ونسبها تزوجها سمير العارف ... ؟ كلا ... كلا يا ابنتي .

ثم الا تسمعين الناس كيف يقدسون ويحترمون الاسرة الغنية الكبيرة . الا تسمعينهم يقولون للشيء الحسن الطيب الجميل المتين انه ابن اسرة و ..

- ولكن يا أبي ...

- ولكن ماذا ...؟ وهل هناك جدال أو نقاش فيما اقول ..؟ كلا .. هذا لا يختلف فيه اثنان .

فأمرني قلبي العامر بالحب بالشجاعة فقلت :

- ولكن يا أبي ... هذه التقاليد وهذه الافكار لم يعد لها وجود في هذا العصر ، عصر العلم والمعرفة ، عصر تحطيم التقاليد والافكار الزائفة وخاصة القائمة منها على المزاعم الباطلة التي تقيم الفوارق بين الناس الذين خلقهم ربهم جميعا من طينة واحدة ، في هذا العصر يا أبي اصبح جميع الناس متساوين ولم يعد أحد يتكلم عن مثل هذه الفوارق التي لا اساس لها ولا اصل او كما تقول « لا حسب لها ولا نسب » .

واحمرت عينا والدي وتوقعت الشر منه ، الا انه قال وهو يكظم غيظه .

نحن يا حنان اسرة محافظة كما قلت ، وما زال في هذا العصر ، عصرك المتقدم عصرك المتحرر من وثنية التقاليد (كما يزعم التقدميون) أسر محافظة لها تقاليدها التي لا تريد ان تتخلى عنها ، وهي على حق ، لانها هي التي تمثل قمة الهرم ، هي التي تمثل الزبدة والخلاصة في كل مجتمع من مجتمعات هذا العالم ، فطالما ان في العالم شرفا ونبلا ، وخسة وواضعة ، وطالما ان في العالم خيرا وشرا ، فضيلة ورذيلة ، سموا وانحطاطا ، عظمة وحقارة فان الاسر المحافظة ، الاسر الغنية ، هي التي تمثل جانب العظمة والسمو والفضيلة ، وما عداها يمثل الجانب الاخر .

فاشتعل قلبي بنار ثورة عارمة : فقلت :

- ألأنها غنية فقط تمثل هذه الصفات الكريمة التي تذكرها ..؟

- كلا ..! بل لانها ايضا كبيرة ومحافظة ولها مكانة اجتماعية ، ومنحدرة من اصل عريق .

- ومن اين تأتي عراقة الاصل يا أبي طالما أننا كلنا - كما جاء الحديث الشريف - لآدم وآدم من تراب .

- تأتي عراقة الاصل من الصفات الكريمة والخلال العظيمة التي يودعها الله في اناس دون اناس وفي اسرة دون اسرة فيرفع هذا ويحط ذاك ولا شيء غير ذلك .

- لكن ... يا أبي ... انا اسمع دائما من أمي بأنك كنت فقيرا ، ضعيف الاصل ومن اسرة لا حسب

لها ولا نسب كما تقول ، وانها اخذتك رغم كل ذلك ، وهي دائما تندب سوء حظها وتلعن الايام السود التي اوقعتها بين يديك .

فأسرعت امي تقول :

نعم يا ابنتي ، لذلك اقول لك احرصي على ابن الاسرة ، وابن الاصل فهو الذي يعز ويكرم وهو الذي يعرف قدر زوجته فيكون لها خادما امينا وزوجا مطيعا ، اما ابوك ...

– ما شأن أبيها يا صفية ..؟ كفاك ثرثرة ...

– أنا لست ثرثارة ، أنا بنت الاصل الكريم الحسب والنسب ، اما أنت ... فآه ... وعضت على اصبعها .

ثارت ثائرة والدي واخذ يلوح بيده وينفث من فيه كلمات مجمجمة يتطاير معها الزبد من شدقيه الغليظتين ، فهمت منها قوله !

– نعم كنت مهاجرامن بلاد الانضول وكنت أجيرا عند أبيك ولكن ليس معنى ذلك أنني لم أكن ابن اسرة . ثم ألم يضطرني أبوك الى ان اكتني بكنية اسرتك بعد ان تسللت ليلا الى غرفتي ودعوتني للهروب ...؟ فلماذا فعلت ذلك ...؟ ألم يكن لي الفضل في المحافظة على اسم اسرتك وشرفها ، خاصةوان أباك لم يعقب غيرك .

فتنمرت أمي واحمرت حدقتاها الجاحظتان . ولكن قرع الباب صب عليها وعلى أبي ماء باردا جعل نار غضبهما تخمد ، والتفت الاثنان الى الباب وصاحا بصوت واحد .

من ... ؟

قالت أمي للخادم أنا آتية حالا ، والقت في اذني عباراتها :

كما افهمتك وكفى ...

ثم انسلت خارجة فتبعها أبي وهو يقول :

افعلي كما اشارت عليك والدتك .

سلمت على الزائرين وجلست ، وكنت اسمع عبارات الثناء علي وأنا مطرقة صامتة كأني لا أعي شيئا . ثم سمعت عبارات الثناء على سمير فانتعشت نفسي وانبعثت الحياة في جسمي ، وسرت ومضة أمل واشراق في روحي لم تلبث ان اخمدتها أمي بقولها .

والله يا عزمي بك ، ان سميرا كما ذكرتم ونحن نقدر فيه هذه الصفات الكريمة ، ولكن ... كما اخبرتني حنان ، انها تريد ان تتم دراستها الجامعية ، ويا حبذا لو لم تكن مصممة على هذه الفكرة من زمن طويل ...

وساد الغرفة صمت كئيب لم يقطعه الا صوت وقع اقدامي وانا انسحب من الغرفة مطرقة الرأس مهيضة الجناح .

وفي صباح اليوم الثاني لم التق بسمير ، ولم تبصره عيناي فيما بعد . ولكن قلبي كان يراه وروحي كانت تتبع خطاه ، ووجداني كان يتنسم هواه .

حاولت ان اقترب من زميلتي التي كانت تحدثني عنه لأبين لها الحقيقة فكانت تتحاشاني ، وسعيت الى التحدث اليها مرات فكانت تتهرب مني واحيانا تصرفني عما أبغي دون ان تدعني ألمس غرضها .

كتبت اليه أبين له الحقيقة وأبثه لواعج هواي ، فلم يجبني .

ذهبت الى زوجة قريبي عزمي بك سرا وحدثتها بالحقيقة ، فكانت فاترة في مقابلتي ، غير مبالية بحديثي ، وكان كل جوابها ووعدها لي ،

– سوف نرى ...

اضطربت حياتي ... واصبحت لا اذوق النوم الا غرارا ، ولا الطعام الا قليلا ، حتى هزل جسمي واصفر لوني ، فاصبحت وكأني فتاة اخرى غير حنان التي كانت منذ مدة تفيض بالبشاشة والبشر وتتوثب حيوية واملا وبهجة .

أما أمي وأبي فكانا كأنهما لا يدركان شيئا من أمري .

رسبت في الامتحان .. واعدت سنتي الدراسية في

مدرستي • وقد أخذ ثقل المصيبة الطاغي يخف شيئا فشيئا عن قلبي الواهي ، وقديما قالوا : كل شيء يولد صغيرا ثم يكبر الا المصيبة فانها تولد كبيرة ثم تصغر ، وأنا أضيف اليها أيضا عبارة « الاخفاق في الحب » فان الزمن يداويه ببلسم النسيان والسلوى فيهدهد الاشواق ويطفىء اللهيب •

وحين نجحت في نهاية السنةالدرسية قبلتني أمي وهي تقول : ان أبـاك يبحث لـك عن وظيفة تناسبك ياحنان ، فانت تعلمين ان حالتنا المادية أصبحت ضعيفة ، وان تكاليف الحياة أصبحت باهظة ، ولا سيما ان اباك يعيل خمسة اخوة لك أصغر منك ، عدا عن تكاليف دراسة أخيك في أوربا ، فعسى الله ان يوفق أباكفيايجاد وظيفة تناسب علمك ومقامك •

ولكن ابي اخفق في ايجاد وظيفة تناسب مقامي كما قالت امي فسعيت بنفسي ، وذهبت الى مدرستي التي تخرجت منها ، وكانت مديرتها تحبني وتقدر في الجد والاخلاص والكفاءة فأصبحت معلمة فيها •

ثم مرت الايام واسدل النسيان ستارا كثيفا على ذلك الحب الذي ما كاد يولد حتى خنق في مهده ، وها قد مضى علي الآن مـا ينيف على عشر سنوات أعيش تلك العيشة الرتيبة ، العيشة الكئيبة الخاملة التي يسميها ابن الرومي (بالحمارية) خالية من العاطفة خالية من الحب الـذي ينعش القلب ويبهج الـروح ، خالية من الحياة التي تتطلع وترنو اليها كل فتاة ، حياة الزوجية والاسرة والاطفال الذين لا يحلو العيش الا بهم ولا تلذ التضحية بالراحة الا من اجلهم •

علت ضوضاء الاطفال في الصف وكثرت جلبتهم وهم بعضهم بالخروج وانا ما زلت جالسة ع لىمقعدي ساهية ساهمة ، قال لي طفل « قرع الجرس يا آنسة »•

فخرجت الى الباحـة ازيل عن نفسـي همومهـا واشجانها واضمد ما نكأ فيها من جراح •

خرجت الى دنيا الاطفال الى الباحة التي تمور بهم اسمع زقزقاتهم وانظر اليهم وهم يسرحون ويمرحون ويتصايحون ، فاشعل مرآهم في صدري لظى محرقة كان من فيض سعيرها دمعتان حرتان هطلتا على الخدين رأيت مـن خلالهما رمزي يجري مـع الجارين ويلعب مـع اللاعبين •

ورمزي رغم جماله ووداعته ، ورغم ان قلبي هفا اليه لاول نظرة ، ورغم حبي لابيه ، أصبح قذى في عيني وشوكة في قلبي يدمي العين ويخز القلب •

كانت حناياي واضلاعي تطبق على جرح أليم يكاد يلتئم على فرط البعد وطول النوى ومرور الايام فجاء رمزي ونكأ ذلـك الجرح كان حبـي مدفونا في قلبي فوقه جنادل وصفائح فجاء رمزي وانتزع تلك الجنادل والصفائح بقوة وقسوة وبعثه حيا يسعى ، يدب ويقفز قفز ذلك العصفور رمزي •

أصبح رمزي أمامي رمزا للحب المخفق والحظ العاثر ، أصبح رمزا لتعاستي وآلامي ، رمزا لقسوة أمي وابي وكبريائهما السخيف ، رمزا لتلك الحقبةمنحياتي بما فيها من شئون وشجون ، فبرمت به وبوجوده عندي• وأصبحت كلما دخلت الصف ووقف اولئك الاطفال الصغار يحيونني اول ما تقع عليه عيناي هو رمزي ، بل أصبحت اذا اردت ان أطلع على وظائفالتلاميذودفاترهم واستمع لهم دروسهم او ادعوهم الى الكتابة على اللوح اول ما ابدأ برمزي • وكان يغيظني من رمزي فهمه وذكاؤه ، كان يثير أعصابي بهدوئه واتزانه وكأنه رجل ناضج ، كان يضايقني بانه لم يأت في يوم من الايام الا وقد كتب وظيفته وحفظ درسه كتلميذ مثالي ، كنت أجد في نفسي ميلا للتحرش به ، لمخاصمته للانتقام منه ، كنت اريد ان أجد ثغرة في سلوك هذا التلميذ الجميل الوديع او في دراسته وتعلمه او تصرفه حتى اتخذ ذلك حجة للنيل منه • الا ان الطفل النشيط الذكي الهادىء الجميل لم يترك لي تلـك الثغرة ، فحاولت نفسي أن توجدها • وقد قاوم ذلك الشر ضميري ، الا ان نزعة غامضة أخذت تحثني بل تدفعني كي أفعل مع هذا الطفل شيئا ما • وقـد حاولت مـرة أن اجعله يضطرب وهو

يكتب على اللوح ، فأمليت عليه بسرعة كلمة مرتين ، خطأ وصوابا ، فأخذ يكتبها ببطء وتأن حتى لا يخطىء فيها ، فما كان مني الا أن صحت به .. وقد خرجت الصيحة من فمي قبل ان ينتهي من كتابتها ، وهنا التفت الي بكل هدوء وقال : لم أنته بعد يا آنسة .! عند ذلك نهرته وأمرته أن يجلس مكانه ، فنظر الي نظرة خلتها أنها ترميني بسهام قاتلة ، ولم أشعر الا ويدي تصفعه على خده الناعم البض .

ثم تطور الامر بيني وبينه حتى أصبحت اذا اردت أن أنهر تلميذا ارتكب جريرة ما ، أناديه وانهره باسم رمزي ، فيقف رمزي شاخصا الي متطلعا باستغراب ودهشة حتى اعتذر اليه بأنني أقصد ذلك الطفل ولا اقصده هو ، واحيانا كانت تدمع عيناه ويقع في حيرة وقلق من أمره معي .

وقد وصلت الحال بي الى أن اطفالي أصبحوا يلاحظون علي ذلك ، حتى ان احد الخبثاء منهم أخذ يستهزىء بي ويسخر مني عندما أصيح ببعضهم فكان يقول لي : ليس هذا رمزي يا آنسة .

امتلأ قلبي بالكراهية لرمزي وأصبح الامر لا يطاق بيني وبينه ، بل بيني وبين أطفال صفي جميعهم أيضا ، بعدما سمعت ما سمعت ، ورأيت ان كرامتي تحتم علي ان أفعل شيئا ما في سبيل المحافظة عليها أمام هؤلاء الاطفال .

وفي الحق ، انني أصبحت لا أطيق تصرفاتي الشاذة انا ايضا في هذا الصف ومع رمزي بصورة خاصة ، اذ كان كل شيء يثيرني ويثير أعصابي ، فاية همسة بل اية نأمة تصدر عن الاطفال داخل الصف انتفض لها واضطرب منها ، أصبحت أوبخ الاطفال لاتفه الاسباب ، وأصرخ فيهم وأحيانا أضربهم وأقسو في ضربهم .. ولكن لم يكن ليؤثر هذا التأنيب وذلك الصراخ والضرب فيهم شيئا ، بل كان يبدو لي انهم يزدادون في حركاتهم التي تضايقني وتغيظني ويتمادون في تصرفاتهم التي كانت تبدو لي أنها سيئة ويزدادون عنادا وتشبثا واصرارا عليها وتكرارا لها . وكم ظننت ان هذه الحركات كانت مقصودة لاغاظتي وايلامي ، وازداد تعبي وارهاقي وكدت اصاب بانهيار عصبي .

ذهبت الى المديرة شاكية باكية :

لا استطيع ان احتمل تلاميذ هذا الصف ، فكلهم خبثاء مشاكسون عنيدون لا استطيع ان اتابع معهم الى نهاية السنة ، ارجوك ان تعطيني صفا آخر غير هذا الصف .. ارجوك .. وانهمرت الدموع من عيني .

فنظرت المديرة الي باستغراب واشفاق .

ماذا جرى لك ياحنان ..؟ انت مثال المعلمة المخلصة الحكيمة الهادئة الصابرة تقولين هذا ..؟ مضى عليك ثماني سنوات دون ان اسمع منك شكوى واحدة . والآن وفجأة يظهر عليك هذا الاضطراب والجزع والتبرم والشكوى دون سبب من اطفال علمت المئات امثالهم وفي سنهم .

انا الآن غيري بالامس ، لا أدري ماذا حدث لي مع هؤلاء الاطفال في هذا الصف خاصة ، فأرجوك ياحضرة المديرة لاجل مصلحتي وراحتي ومصلحة هؤلاء الاطفال ان تبدليني بهذا الصف صفا آخر .

ـ لك ما تشائين يا حنان ..

اللاذقية — حسن حمام



عبد الله العبد الله

شعر : نديم محمد

« عاش ولم يمت ، ومات »
« ولما يعش . »

اشعور تلهو به أم بكاء ؟ أي داء تشكوه ؟ مات الداء
غنني من هدير جرحك لحنا يتملى من رجعه الشعراء
لا تقل ضقت بالحياة ، وان ضاقت بآلامها ، النفوس الاماء
كم سخرنا من العذاب ، وكم نسخر ، نحن الايمة البؤساء
متعة سمحة ، هي الشقوة الكبرى ، وخمر يعرى بها الاشتهاء
أرجع الامس والصبى ، ينتش الخاطر منه ، وترقص الاهواء
أين أجواؤنا الفواغم ترفض ، على لون وشيها ، الانداء ؟
اين احلامنا الانيقة يغفو في اراجيحها : الشذى والضياء ؟
أين من كأسنا ـ صفاوة عين الديك ـ حسن في الكون ـ او نعماء ؟
أين منا ، اذا تعاورنا السكر فتهنا ، الملوك والامراء ؟
لهونا اللهو ، حين يغمرنا الليل ، وتنزو بنفسنا اشياء
ولنا الافق : رحبه الناعم الحلو ، والوانه العذاب الوضاء
والمقادير ، ما علمت ، أغاني ونعمى وادمع ودماء
جمعتها لنا الحياة ، فكان الليل منها ، وكانت الصهباء !
يا سميع الدعاء ، ما عطفت كأس على اختها وطال الثواء
قم الى الحان ، فالرفاق غواد يستحثون في الطريق ، ظماء
واغفر البطء في خطاهم الى الموت ، فما في يد المريد الفناء
قم الى النبع نسقه الخمر حتى ينتشي الظل والحصى والماء
ونغن الاصيل ملحمة الحب ، فتسري بلهونا الانباء
كم على النبع من جمال ووحي أرجت من شذاهما الامساء
وعلى مرتماه ، كم من نشيد رجعته آصاله السمراء
وذيول الصفصاف مجنونة العجب ويبدو كانه استحياء

(١) من ديوان « رفاق يمضون » الذي سيصدر قريبا عن دار الثقافة في دمشق .

وذؤاباتــه الرشــاق اراجيح شــعاع يهـزهن الـرواء
والروابي : صبا ، ووهج ، وقطـر ، ونسيم ، ومندل ، وكبـاء
ويـد الغيم ، بـين محو واثبـات ، فضوء يغشى ، وظل يضـاء
سـكت الحسن ، وانطفى اللحن في الروض واذوت وروده الرمضاء
والسواقي ، مما بهن سـواه عاريـات ضفافهن ، قـواء
وبكى الحب ، أي خطب دهـاه ، ياالخطب يعنى لـه ويسـاء
ليتهـا غفـوة ، على الليـل ، يجلوهـا شـعاع مدلل وغنـاء
ليتها سـاعة يلم بهـا السـكر ٠٠ وينـأى بجانبهـا العيـاء
لمـن الليـل احمـرا مـن دم الخمـر ، توشيـه غفـوة خضراء ؟
لهثت حولهـا الطيوب ، فضـاع الحلم منهـا ، وضاءت السـراء
واحتمت رعشـة النجـوم الى الستر ، حيـاء وللنجـوم حيـاء
حفـظ الله للشبـاب ايـاديـه على العيش ، انهـا بيضـاء
يا سـميري ونحـن روحـان في الخمـر ، سـواء صباحنـا والمسـاء
هيء الكـأس ، واملأ الافـق بالشعـر ، ولبيك كلنـا اصغـاء
انت منـا ونحـن منك عـلى الظلـم انتفـاض وجنـة وازدراء
اجفلت مـن ابائنـا ذروة الجـاه ، ومن زهدنـا تلوى الثـراء
لشموخ الكريم ، لا للغنى ، الحمد ، وللكبر ، لا الكبير ، الثناء
راودونـا خفض الجبـاه من الـذل ، فتهنـا وتـاه فينا الابـاء
فاذا الارض ، ما نشاء ، حياة واذا الكون ، ما نـريـد ، هناء
في ضحى الارز ، عبقـة من اغانينـا ، ومن زهونـا عليه كسـاء
وليالي بغداد ، من خمرنا ، ريا ، وريا ، من حبنا ، الصحراء
كذب القبر ، لا يموت نـدى الفجـر ، ولا يـدرك الخلود الفنـاء
جرحك الجرح ، لا يد الخمر أملته ، ولا السهد خطه ، والعياء
نهشة ، مزقت بها الصدر ، افعى ٠ قارح الناب ، خشة رقطاء
ملقتها يداك لا رهبـا منها ولكن عسى ينـام العـداء
فاسحق من نابهـا شبابـك وانظـر كيف بـاءت بعارهـا او بـاؤوا
يعـذب السـم في النفوس ، ولا تعـذب فيهـا الاطاعـة العميـاء
رب عار ، من بعض اسمائه الفخر ، ومجد عارت بـه الاسماء
والصبى وثبـة الى الشمس تنقـاد وتعنو لعزمهـا الامـداء
لـو أقـول الجهـاد لانتفض القبر ودوى مـن صدرك الانتخـاء

ومشت في العروق عاصفة الزهو ، وشالت برأسها الكبرياء
وشكا السيف غمده وتلظت في العرانين ، غضبة نكراء
قم الى السيف ، ان فيه من الذل شفاء ، متى يعز الشفاء
لو حملت الدنيا وكبرك في عطفي ، لمالت بمنكبي الخيلاء
فامسح الغفو عن جفونك وانظر غرر المجد رفهن لواء
غالبونا عليه ، اما لنا النصر ، واما له النفوس فداء
بين جنبي هدة • وانفجار في ضلوعي وفي دمي انواء
كيف امشي ، وملء دربي جراح كيف ارنو وملء عيني قذاء
سقط السيف من يميني وللموت ورائي ومن أمامي ارتماء
ما ابالي أن يأكل الحزن قلبي فعذابي على بقائي جزاء
ما ابالي بعد العمى أنهار فوق رأسي ، أم ظلمة سوداء
ايه ياليل • كم سهرناك للصبح • وللريح فوقنا ضوضاء
تلتوي ضاحكا الي فالقاك بضحك ترده الاصداء
آلف السخر بيننا فكأننا ، في شفاه البرية استهزاء
ما يضر الشقاء ، والهامة العلياء - قل لي - والجبهة الشماء
همنا أن نموت في الخمر والسخر ، ولوموا يا ايها الاحياء
لا وعينيك ما هجرت ، ولا خنت ، ولا مر في ظنوني جفاء
وبلى ، طار للوداع فؤادي ، فطوى من جناحه الابطاء
فاغمس العتب في جراحي ، وقل هات رثاء يهزك مني الرثاء
قطع هن ما قدرت عليه من فؤاد عضت به الارزاء
آية الحزن أن يغيم به الفكر ، فمنه على الشعور غشاء
لهب شاهق وراء ضلوعي ، وصراخ ممزق ونداء
يا رفيقي حتى يضيق بنا الليل • وتدمى بسيرنا الغبراء
لا تلمني على البقاء برغمي فملوم ، من دون نفسي ، البقاء
لم يزل في يدي ذماء من الخمر ، فمهلا يجف منها الذماء
وغدا عندما أضيع من السكر ويمحى في ناظري الضياء
وارى باليدين ما يشبه الناس ، وما خلت أنها اشياء
وتروغ الحياة مني ، فما تمسك الا سرابها ، الاعضاء
فاذا ما بلغت ذروة آلامي ، وكان الذي تريد السماء
ارجعتني اليك نفس لها الله ، وعهد له علي الوفاء

الثقافة المهنية

بقلم : زكية الصوفي

ان المهنة الحقيقية تتطلب تربية بدنية مهنية ، تهيء الجسم بكامله لحركات العمل ، وتمريناتتخلله استراحات متفاوتة البعد تحول دون التعب .. فيتعود الفرد على نشاط جسمي وعقلي ، لا نستطيع فرضه على العامل غير المهيأ دون أن نعرض اتزانه العقلي وصحته للخطر .. ومن صالح الطبقة العاملة أن تهتم بهذه النواحي مبكرا كيلا تسيطر الآلة على الانسان ، وعندها يستطيع العامل مهما كانت درجته المهنية ، أن يسهم في تنظيم مواد الانتاج .. ولذا ينبغي دراسة علاقات الرجل بالعمل من ناحية الاستعداد والمؤهلات قبل دراستها من ناحية الانتاج ..

ولا يتم ذلك الا بتوجيه الفرد توجيها مهنيا ملائما لطبيعته وقواه العقلية والجسمية والخلقية ، توجيها يرتكز على أسس اجتماعية وانسانية ترمي الى مساعدة الفرد من أجل خدمته كفرد مع مراعاة المصلحة العامة . فهدف التوجيه الاول هو العدل بالنسبة للفرد ، والنظام بالنسبة للجماعة .. اذ انه لا يكفي أن نقود المراهق على عمل نافع ، بل يجب أن تكون الطريق التي نخطها له تلائم ميوله ، وتساعد على تفتح شخصيته التام ، وتؤمن له السعادة بقدر ما تسمح له امكانياته . ان التوجيه المهني هو مسألة روحية وخلقية وتربوية . فهو يعمل على دراسة مؤهلات الفرد وطباعه وذوقه وطموحه ومثله الاعلى ووضعه الصحي والعائلي والمدرسي والاجتماعي، ويهتم بهذه الدراسات ، لا ليخلق اصنافا او درجات (اذ أنه يراعي نقائص الموهوبين ، ويستقصي الصفات الجيدة عند من ضنت عليهم الطبيعة بالمواهب البراقة) بل ليوجه الفرد الى المدرسة المهنية التي تلائمه ، ويعطيه الثقافة اللازمة لتؤمن له ، بالرغم من نقائصه ، حياة مملوءة بالعمل ، طافحة بالسعادة التي لا يذوقها الا من يشعر بأنه عضو نافع في المجتمع .

يستعين التوجيه بكل المعلومات التي تحيط بحياة الفرد ، والارشادات المأخوذة من الاهل والمربين والاساتذة والاطباء وأصحاب المهن . فيأخذ معلوماته من حاضر الفرد وماضيه ، ويستعين بها على بناء مستقبله . انه كالعمل الاجتماعي « خدمة تؤدي الى الغير » بكل ما في الكلمة من معنى ، فهو يؤمن أكبر انتاج ممكن ، بأقل جهد ممكن .

ولذا نرى أن التوجيه ، عندما ينتهي من دراسة مواهب الشاب ومؤهلاته ، دراسة علمية ، فنية ، بواسطة الروائز المخصصة لذلك .. يدخل في دور الارشاد والتوجيه ، فيشرح ويقنع ، ويبحث عن الوسائل العملية لمساعدة الفرد مساعدة فعالة ، اذ أن واجب التوجيه الاول ، هو قيادة المراهق الى الطريق التي تلائمه ، وايصاله الى أبعد ما يستطيع ، وايجاد الوسيلة العملية التي تمكنه من السير فيها ، وارشاده الى نوع الثقافة التي عليه أن يتثقفها . وكثيرا ما تغير المعاينة الطبية نوايا المراهق ، وأهداف أهله بسبب حالة فيزيولوجية تحول دون تعاطي مهنة ما كقصر النظر ، والاقدام الممسوحة ، وعمى الالوان وغيرها .. فلا يمكن اتخاذ قرار ما بالنسبة لانتخاب مهنة الا بعد الاطلاع على حالة الفرد الصحية سابقا وحاضرا ، وامكانيته في المقاومة ، وقدرته على التكيف ، فيقدم الطبيب تقريرا مسهبا يحكم على

ضوئه على امكانيات الطالب في المعمل ، بعد كشف المزايا والعاهات الجسمية والفيزيولوجية • وتكون ارشادات الطبيب سلبية غالبا ، غير ان مثل هذه الارشادات لا تقل أهمية عن الارشادات الايجابية ، ولا سيما عندما تنهي عن ممارسة عمل ما في شروط معينة : كالتعرض لعوارض الطبيعة ، والوقوف لمدة طويلة وحمل الاثقال •• وقبل أن ينتهج الفرد نهجا معينا ، عليه أن يكون مطلعا على أنواع المهن •• وهنا تظهر ضرورة الدعاية واضحة جلية لمساعدة التوجيه ، وضرورة تصنيف المهن الى فصائل ودرجات ليسهل ترتيبها • ان تصنيف المهن الى رتب وانواع يتبع نفس التطور الذي طرأ على العلوم المختلفة التي لم تنبثق من أصل المعلومات العامة الا بعد حلقة طويلة من الدراسات والاعمال • وهكذا نرى المهن تتفرع شيئا فشيئا الى فروع متعددة • فعلى الموجه أن يرنو لا الى اختصاص معين بل الى مجموعات وأصناف من المهن نستطيع أن نجد بينها نقاط شبه ، وصفات مشتركة ، ومن بينها ينتخب المهنة الاكثر ملاءمة •• فعلى التوجيه اذن كي يبلغ الاهداف التي وضعها أن يصنف المهن كشجرة ، جذعها واحد ، وفروعها كثيرة جدا ، واضعا المؤهلات في الجذع والمزايا المختلفة في الفروع ، مقربا بين مجموعات من المؤهلات ، ومجموعات من المهن ، جامعا بين المهن المختلفة التي تحتاج لفئات معينة من المؤهلات •

وبما أن الثقافة المهنية هي مادة رئيسية في التنظيم الاقتصادي ، عليها ألا تقصر اهتمامها على تهيئة رجال مختصين ، بل يجب الانتباه الى نوع المهن التي تحتاجها البلاد ، بدراسة سوق العمل المحلي والاقليمي والوطني •• فلا يوجه الشباب الى أعمال كثر الاقبال عليها ، أو قلت الشواغر فيها •• وعلى التوجيه أن يحسب حساب الطوارىء والاختراعات الجديدة والتطورات الناتجة عن الحوادث الاقتصادية والسياسية التي كثيرا ما تغير مجرى الاعمال •

ولذا نرى بأن التدريب المهني السريع لا يحل مشكلة العمال والاختصاصيين والفنيين الا حلا مؤقتا ، اذ أنهم قلما يكونون بمنجى من البطالة عندما يهيؤون بهذه الطريقة •• فما أزمات البطالة الناتجة عن عدم استهلاك انتاج ما الا لتبرهن لنا على ضرورة اعطاء العامل ثقافة واسعة تسمح له بتعاطي عمل جديد عوضا عن عمله اذا اقتضت الحاجة ، والقيام بمهنة تختلف عن مهنته أو أصعب منها بقليل اذا ما دعت الضرورة ••

فهناك كثير من العاطلين الذين لا يستطيعون العثور على عمل جديد ، لانهم لم يقوموا قط بمهنة حقيقية ، جديرة بهذا الاسم ، ويتعذر عليهم اصلاح بعض الاخطاء التي يقعون فيها ، اذ ان هناك سنا للدراسة المهنية ، كما ان هناك سنا للعلم والدراسة العقلية •• فالتدريب المهني لا يكفي بالطبع لان يكون أساسا لثقافة مهنية ، فما هو الا عمل جزئي بعيد عن أن يكون تمرينا كاملا وتهيئة تامة ، بيد أنا نرى أن هدف الثقافة الصناعية هو تأمين السلاح اللازم لمجابهة الحياة ، وتزويد الفرد بالزاد اللازم ليستطيع عندما يصبح رجلا لا الحصول على عمل فحسب ، بل أن يتكيف مع الحوادث والطوارىء ، ويلتئم بسرعة ، مع عمل آخر يساعده على اتقانه ، تكوينه المهني فيأمن غائلة البطالة مهما تقلبت الظروف وتغيرت الاحوال •

ومن هنا يظهر بأن على الثقافة المهنية ، والمدارس المسلكية أن ترمي ، لا الى خدمة الصناعة والتجارة فحسب ، بل الى خدمة الشباب والشعب والوطن •• فعلى التعليم الفني الذي يقدم عمالا ورؤساء للانتاج ان يجعلهم أسيادا لعملهم وآلتهم ، لا عبيدا لها •• ويفتح أمامهم سبلا واسعة الآفاق ، متشعبة الفروع ••

الميلاد الثائر

قصة بقلم : اسماعيل عدرا

الى ولدي هشام في عيد ميلاده الاول

لم يخطروها بحقيقة مرضها .. فلقد آثروا السكوت على الداء ، يجتث البراعم ورقة تتلوها ورقة ، فتذوي الحياة ازاء نبع كان يمد الحياة بديمومتها ونقائها !..

ولعل ليلى ، قد كانت تتفرس في وجوههم ، فتدرك من خلال نظرات تتصوح في عيونهم ، وابتسامات عجف، ترتسم على شفاههم ، أن ثمة أمرا ينذر بالخطر ، فآثر القوم اخفاءه عنها .

ويطيب لها أن تهمس في أذن أمها ، وقد خلت الحجرة الا منها ، ولفها الصمت :

ـ كم من الزمن مر على مرضي ، يا أم ؟ .

وحاولت الام أن تصرف ذهن ليلى الى غير ما اجابة ، فقالت :

ـ المرض يا بنيتي ، تتغلب عليه الارادة الشابة والنبض الخير العبق برذاذ دافيء ، وأنت ، رغم هذه السنين التي انداحت من حياتك ، فسوف تشفين من دائك ، وتقفلين الى الحياة تنهلين من مرحها وبشرها ودفئها .

ـ صحيح ، سأعود الى الحياة ، لكن هذا الداء الوبيل يا أم ، ما يبرح يفتح شدقا كهفيا ، يمتص دمي ، ويعري عروقي من شذاها وريها !.. فمتى تنقضي اقامة الداء في مفاصلي ، ويبرح حياتي ؟..

مرة ثانية تشاغلت الام عن الاجابة .. ثم برحت الحجرة .

* * *

« كان ذلك منذ ثلاثة عشر عاما ، يوم كانت ليلى تغدو مع أترابها الى حقل « الشمس » يغترفن منه ضياء يومهن ، وسناء حياتهن ، ثم يعدن مع تراتيل الامسيات ، وترنيمات الشفق ، يتهادين بخيلاء العذارى اللواتي تعالين على الافق في دفقة من وجود ، ضمخه أبد لم ينطفىء له وميض .

وبغتة تمد المأساة أصابع الشر .

لقد لمحت ليلى ، في احدى غدواتها من الحقل ، شبحا يجثو جانب شجرة صنوبر ، ظليلة ، يومىء اليها بصمت وحذر : أن تعالي !.. جفلت ليلى وارتعشت ، وهي تصوب على الشبح عينين أخذ الذعر يرش فيهما دمعا من حيرة ، وشعاعا من توجس . مع ذلك وقفت تستطلع الشبح معالمه ، علها تكتشف السر المباغت الذي اعترضها ، على حين ظلت أترابها في رواحهن غير آبهات لتوقف ليلى ، على حافة الغابة ، والليل يتدفق في ظلام مخيف .

وتسلل الشبح ، ودنا منها حتى كاد يلامسها ، فصرخت ليلى صرخة الخوف وتوارت عنه قافلة الى منزلها .

وتكررت همسات الشبح لها كلما عبرت الغابة الى حقول « الشمس » حتى أذعنت له غير واعية ، ثم أجابته اثر سؤاله :

ـ أنا ليلى !

وتبسم الشبح ، ورفت على وجهه تعبيرات باهتة مضللة .. فقال :

– ليلى ؟!•• طوباك يا ليلى !•• لانت أجمل عذارى المدينة !

ولم ترتح الفتاة لكلماته ، يطري بها جمالها ، فسألته :

– ولكن ، من أنت ؟

– أنا حارس الغابة ، أرتاد هذا الطرف القصي منها ، مرة في عيد الميلاد كل عام ، أستوحي الكنائس خشوع الايمان ، وأستلهم قرعات النواقيس نغم الورع والتقوى ، ثم استشرف المآذن فأمتاح من آفاقها فيضا من اعتزاز وقدرة •• أنا حارس الغابة والحقول !••

وتلقى الوجه المرتجف سكونا مطمئنا ازاء نغمات الورع وشموخ المآذن ، تنثال من الشبح بتأن وعمق ، لكنها ما عتمت أن باغتها الارتياب ، وعاودتها الشكوك •• ان الشبح يرنو اليها بعينين ليس فيهما وداعة أهلها ، وبساطة أترابها •• فعقبت على قوله :

– واذا انقضى عيد الميلاد ، فماذا أنت فاعل ؟

– سأعود الى حراستي •• الى كوخي الرابض على سفح جبل الشمس ، احرس الغابة والحقول !

– وهل أنت تحرس وحيدا ؟

– أحرس وحيدا ، لكن نفرا من الناس الغرباء عني ، القريبين اليك يا ليلى ، يرتادون الغابة والحقول، فيقضون في ضيافتي وقتا ثم يعودون ••

وسألت ليلى :

– من هم هؤلاء ، والى أين يعودون ؟

– يرجعون الى حيث لا أعلم • انهم جاؤوا من أصقاع بعيدة ليلقوك يا ليلى •

– يلقوني أنا ؟!••

– بلى •• أنت ضالتهم ، وهم ما يبرحون يجوبون هذه الربوع لعلهم يصدفون ليلى !

أخذت ليلى تحملق في الشبح ، بنظرات مشدوهة، متفحصة ، بيد انها لم تع شيئا مما قال • واستطال الغموض في أحاسيسها ونما ، فاهتزت غموضا وحيرة ••

ما هذا الشبح ؟ ومتى كان حارسا ؟ ومن سلمه حراسة الحقول ؟ ولم لم تسمع به ؟ ولم لم يذكره الناس في أحاديثهم ، على حين ذكروا أكثر من مرة أن فئة من الناس يبحثون عن ليلى ، ويدعون أنهم أهل لها وأنها بنت لهم ؟!

لم يأتها على تساؤلها هذا ، ما يهدىءروعهاويسكت وجيبها •• عمق في الغموض ، ورزوح في الحيرة !!

كان الشبح يرقب ما يخلفه حديثه من أثر على ليلى •• لقد أدرك حيرتها وتشوقها للمزيد من حديثه ، فمضى يقول :

– ان هؤلاء الناس على ميعاد معك يا ليلى ، ولسوف يباغتونك ذات مرة ، فيقدمون اليك أضاحي عيد الميلاد ، ويحفون بك جاثين خاشعين••فلا تتنكري لهم ، ورشيهم بنثار من فيوض طهرك ، ونقاوة منبتك !••

وأفاقت الفتاة من خدر حديث الشبح فقالت بتؤدة واصرار :

– انهم لصوص •• ان أهلي هؤلاء •• من أشادوا هذه الحقول ، وبنوا هذي الديار •• أهلي هؤلاء الذين كوكبوا الربا وصعدوا الافق •• هؤلاء ذوي وأهلي •• فلتدع هؤلاء اللصوص ينكفئون الى حيث جاؤوا ، انني لن أتوجس من اللص خشية ، ويد النور تجتث يده الباغية !

وتضاحك الشبح ، وهو يريها ثمرة لم تر عينها نظيرا لها :

– ان هذه الثمرة ، انما هي لك يا ليلى ، فيها تكمن النضارة ، ومنها يتوهج لهيب الحياة • من يذقها يظل يرفل في تيه من نضارة العمر وملحة الحياة ••

كانت الثمرة صغيرة ريانة ، مضرجة بشذى متأرج ، ترصعها ألوان موشاة زاهيات •• فيها لذة ، ومنها تنبعث متعة لا تقاوم ، استسلمت ليلى لفتنتها ، فمدت اليها يدا بضة تائهة ، ولم يدع الشبح القلب المحصور بجذوة اللذة أن يفتر وينثني ، فألقى بالثمرة في فم ليلى ،

فاستطابتها ومضغتها ، فتقطرت عصيرا شهيا في فمها ، انسال رضابا حلوا الى دمها وروحها !!..

كان الليل قد تدفق رهيبا ، وانداح هزيعه الاول ، حينما ندت من الفضاء جلبة أعقبها صوت : ليلى .. يا ليلى .. يا لله .. انه أخوها « جودة » يبحث عنها .. لقد نسيت نفسها ، وتطامنت لحديث الشبح ، طليا شائقا .. ولكن الشبح توارى ، وليلى أجابت على الصوت : هأنذا .. هأنذا .. يا جودة !..

وقفلت راجعة مع أخيها ، الى حجرتها ، وهو يتوعدها آنا ، ويهددها طورا ان هي تخلفت ثانية عن العودة .

لم تكن تريد التخلف عن العودة في غدواتها الى حقول « الشمس » ، لكنها رغم تهديد أخيها ، وادراكها الخطر الناجم عن ذلك ، فانها ما فتئت تتطلع الى حافة الغابة ، حيث يأتي الشبح كل مساء ليبث اليها حديثا جديدا ، طليا ، أو يروي لها الاعاجيب عن هؤلاء الباحثين عنها ، فتتلقى الحديث عنهم شغوفة للقاهم !!

وتهاوت ليلى مريضة ..

هرع أترابها وأهلها يكفكفون من دموعها الساحة ، ويهدهدون من آلامها المبرحة ، لكن العلة استشرت في جسم الفتاة ، فتعرت من النضارة ، وهزل القد المائس ، وانطفأ الوميض في العينين المكدودتين ، واربد الجبين الذي كان ذات مرة يحف بالافق ، وشحب المحيا الذي تدفقت منه شعاعات وشرع ، فاستحوذ عليها حزن قاتم خطير . »

* * *

أجالت ليلى طرفها في أنحاء الحجرة ، فلم تجد حولها سوى أم مهدودة القلب ، محزونة النفس ، ترعى الهيكل المتغضن الممزق ، الشائه الوجه ، التائه المصير !.. فسألتها :

ـ أين أشقائي وأهلي يا أم ؟

وندت عن الام نهدة ، أعقبها صمت طويل ..

ولم تعقب على السؤال في شيء .

وألحت ليلى بالسؤال :

ـ أين أهلي واخوتي يا أم ؟!

واذا تخوفت الام على صحة ابنتها من تجاهلها السؤال ، أجابت :

ـ أخوك (جودة) ما يبرح يرعاك ياليلى ، ويكافح الداء الذي تقطر زعافا في عروقك وروحك ، أما أحمد فقد نزح عنا متزلفا من هؤلاء اللصوص ، وعادل فقد تنكر لامومتي ، وسالم لاه عن أخته !..

وسكتت الام وطال سكوتها ، حتى سئمت ليلى وضجرت ، فأخذت تلج على أمهامستفسرة مصائراخوتها ، فاستطردت الام :

ـ ا نأخاك (تامر) انقلب من شقيق فيه نزوع الخير وملاذ الامانة ، الى انسان خان الوديعة وظاهر الاشباح المرعبة . ولا تسألي عن أخويك (محمد ولامع) فاني أجهل كل شيء عنهما حيالك يا ليلى ..

ـ وماذا عن أخوي (لاذع وجميل) ؟

ـ لاذع كما عهدته .. وجميل فحديثه غصة في النفس ، ولوعة في المشاعر .. انه لم يبرأ من مرضه يا ليلى ، ولكن الشفاء دنا منه ووشيكا يبرأ ويقف في الحياة كما وقف أبوك منذ ثلاثة عشر قرنا !..

ـ كيف ذلك يا أم ؟

ـ يقولون يابنيتي ان ملامح ابيك وأنفته ، وشرعه الحق التي منحها للوجود ، كلها مخايل وعلائم ترتسم على محيا جميل .. فيه عنف أبيك وعناده ، وفيه قوته وسطوته وتقديسه لاخته . ولكن الاشباح الرهيبة التي غرست الداء في قلبه ما تبرح تناوشه وهو يكافح العلة ويستأصل الشر ، وقيل ، والقول صدق ، انه سفح في قمع الداء مليون قطرة من دمائه !!..

ـ وأنا يا أم ، متى أبرأ من هذا الداء الرهيب ؟

ـ في عيد الميلاد يا بنيتي .. فارتقبيه !!

اسماعيل عدرا

التراب المسافر

شعر : خليل خوري

المقابر :
أنا أخاف المقابر :
الجنازات ، والتشمع والتأبين
والزيت ، وانسدال الستائر
« كان حيا ·
أين هو الآن ؟
حيا كان ·
والآن ؟ عاقر بنت عاقر » !
والمقابر
هنا على صفحة الدرب نذير
يقول اني عابر
يقول اني عابر
غول عمري ، حقيقتي ،
ورقة النعي ، مصيري
أخاف برد المقابر
يارمادا في برد يأسك صاغر
وجهي الآخر الدميم ، تلاشي هباء
غدي ، غدي يا مقابر
أ أنا نحو مرفأ الصمت سائر ؟
« كان طفلا ، وذات يوم رأى ميتا ،
ومن يومها يخاف المقابر »
ليت أني ··
و (ليت) بلهاء ،
لكن ليت اني تعلة ، توق شاعر
ليت اني ما جئت ، ليت المقابر
لم تكن ·
(ليت) أي بلهاء عاقر
كرة الثلج ، في ضميري تنمو
كذبتي صفقة الغرير الخاسر
ليت أني ما جئت · ان مجيئي
وعي وعيي ، أني الى القبر صائر
أي شيء في صمت ليل المقابر ؟

أي شيء ؟
وكيف اقنع نفسي :
أن موتي بعثي ،
اروغ ·· اكابر
كبريائي ـ هذا الذي فوق وحل الختل
مرغت ـ خادع ·· متآمر
أنا للدود ، مت قبل مجيئي
مت · لا · لست ·
رغم رف المشاعر ،
أنا ميت من قبل بدء الاداهر ·
أنا ميت · حملت شاهدتي الصماء وشما ،
أنا التراب المسافر ·
أنا ميت ، حملت نعشي يوم الصرخة البكر ،
يا لوهمي العاثر !
أنا ميت رغم ارتعاشي ،
ميت منذ ما كنت نطفة ،
والمقابر
قهقهات السفاح صمت المقابر

« خشب النعش ، والصليب ، وطربوش
وآس ، وموكب ، ومباخر
صلوات تتلى ، وقد وزعوا التركة ،
آس ، واوجه ، ومساخر »
رحلتي ـ
لن أعي الكذب القتال ـ
وهم ، أنا التراب المسافر
وصقيع أنا صقيع ، وصمت
رغم رجع الصدى ، ودفء المحاجر
أنا موتي أنا الرماد المغامر
حاضري غابر ، كأني ما جئت ،
وآتي مثل أمسي الغابر
صدفة كنت ، صدفة ،
من أتى بي كان مثلي
يخاف ليل المقابر
كان يدري بأنه غلة المنجل
يدري ، أنى تدور الدوائر ·
ويصر الهباء أن يفرز الظل
وظل انا ، لآت مسافر
ظن أني أنا (أناه)
وبي يسبي انطفاء العيون ،
جهش النواظر ،
يا لوهم الفتى الغبي الخاسر !
ياله يجهل الالوهة والرفض !
غرير ،
وهو التراب المسافر
أي شي أن ينسل الصمت صمتا ؟
أي شيء أن يفرز الظل عابر ؟
والمقابر
علاقة فوق خد الدرب تومي
وجهي الدميم المقابر ·
عاقر كل من يورث عاقر ·

دمشق ـ خليل الخوري

في العالم الجديد

بقلم : شاكر مصطفى

لو وقفت بك الخطى ، ذات يوم ، في ساحة المدينة أمام تمثال ضخم لحذاء عتيق ، فماذا تراها جنيات الظن ملقية في وهمك ؟ أهو حذاء جندي عملاق ربح معركة ؟ أم نهاية الطريق ألقاه هناك أول مؤسس للمدينة ؟ أم هو مس م ن‌جنون أطاف بالبلد فاذا هو بدل التماثيل المردة يعشق .. الحذاء العتيق ؟

لقد لاك ظني ، مرة ، هذه الفروض وأنا أطل على ساحة كبرى ، في (كارتاهنة) أبرز مرافىء التاريخ الاسباني على البحر الكاريبي ، فاذا بالساحة تستدير حول حذاء ضخم من الحديد الازرق ، يكاد يتسع لطفلين !.. ولكن اللوحة البرونزية التي كانت تنام ، أمام الحذاء ، كانت تحمل قصيدة ، وكانت القصيدة تقول :

أحبك ياوطني !
أحبك حبي لحذائي العتيق

وعرفت أن النصب ، انما أقيم تكريما للشاعر صاحب هذه الكلمات ..

كان ذلك في الايام الاولى من وصولي الى العالم اللاتيني عالم القارة الاميريكية الجنوبية . ولقد جرح خيالي أن يحفظ الكثيرون هناك القصيدة ، وأن يربط الشاعر بينهم وبين الوطن برباط من حذائه العتيق ..

على أني ، من يوم الى يوم ، كنت ألقى جراحا أخرى على الخيال . كان مناخ آخر من الحياة ينداح أمامي . وكا ن‌المألوف الراكد ، وراء جلدي ، يهتز دوما بجديد وافد . كانت تثقبه حصاة هنا ، وحصاة هناك .

وكنت أفتح يوما بعد يوم ، جانبا من نفسي لهذا الجديد، يؤديه ويتمثله . لا بد أن ثمة منطقا آخر للحياة والناس ها هنا . لا بد أن ثمة معراجا مختلفا من المعارج ، نحو مصير مختلف .. وحال الحذاء ـ التمثال عندي ، رمزا لهرب المهاجر الاوروبي ، الى العالم الجديد ، من تراثه السال ف. لقد ألقى عند سيف البحر ، بحذائه القديم لانه يريد أن يعرف لذة الاشواك ، وهو يقترع بقدميه الدرب الجديد ..

كثيرون قبلي ، دون شك ، هبطوا ذلك العالم ، من جوانب الارض ، وفي عيونهم صور هذا المجتمع أو ذلك من ترابهم القديم ، فاهتصرتهم غربة الروح هناك. مزقتهم مسطحات من الحياة لا أعماق فيها ولا أبعاد ..

فأي قارة هي تلك القارة اللاتينية التي ينبض بها ألف ألف قلب عربي ، مني ومنك ؟ .

على بعد مائة كيلو متر من تمثال الحذاء الشاعر يقوم تمثال آخر لكريستوف كولومب . يزعمون أنه هناك ، في مدينة (بارانكيا) من كولومبيا حط قدمه ، أول ما حطها في القارة الجديدة . وهناك وقف له الهنود، مصعوقين ، كتماثيل آلهتهم القزمة ، تستدير عيونهم ـ على الخزر ـ لمولد انسان آخر من الماء البعيد . لم يتمكن خيال الهندي من تسجيل تلك المفاجأة في أساطيره لان سيف ذلك الوافد الاول كان أسرع الى رأسه من خياله .. وظلت المفاجأة سؤالا مرعبا على جمجمته !

وأشهد لقد رأيت عيني تمثال كولومبوس فارغتين، فارغتين حتى العمى القاتل . بريق الذهب هو الذي

اختطف البؤبؤين فما يريان .. ما يريان . فعلى مسيرة أميال معدودة من تمثال كولومب تتمدد احدى النقاط العمياء الكثيرة في القارة . هناك في تلك الآجام القريبة ما يزال أحفاد أولئك الهنود القدامى الذين رأوه . ما يزالون ، الى اليوم ، في العرى والنشاب وبدائية الخلق الاول لم يقربهم انسان من الانسان بعد !

لقد رأيت صورة لكولومبوس تصوره على شاطىء الوصول ، نصفه الايمن قسيس في المسوح ، يحمل الصليب ونصفة الايسر محارب في اللأمة السابغة يمد بالسيف . كذلك في الواقع كان الفتح والاستيطان : سيفا يقتل وقسيسا يبارك . أما الانسان الذي يلتقي بالانسان فقد ضاع بين الاثنين لانه لم يكن له وجود .

وذلك اللقاء الذي نباركه نحن باسم (عصر الاكتشافات) الكبرى ، كان ملحمة دم وأشلاء دامت أكثر من قرن ونصف القرن . وبينما كانت محاكم التفتيش تبيد الحضارة العربية في الاندلس كان أبناء تلك المحاكم يهجمون ، كالعلق الضخم على أطراف القارة المكتشفة : فهندي ذاب فيهم وهندي جندلته السيوف وهندي هرب الى الغابة ..

لقد تهاوت أمام الفرسان المباركين اضلاع الهنود الهمج .. تهاوت حضارة الآزتيك ، في المكسيك ، بأهراماتها ومعابدها الذهبية . وداست الحوافر على شعوب (الشيبشا) في كولومبيا ومسحت السيوف معابد الآنكا في (بيرو) مع الرؤوس اليانعة ، وأبادت هنود (الكاغا هاناري) في البرازيل ، وما أثلوا من سور ومعبد . وشرب (الاروكانيون) في شيلي ، الشوك والسل والصعاب ، قبل أن يذوبوا في الفيض البشري المقتصر ..

ظلت أبناء الملوك الصرعى والشعوب المسترقة تسيل من الشعاب الجبلية وعبر السهول البعيدة والمسالك الغابية المظلمة مائة سنة او تزيد (بيسارة) ، (كورتيز) الرهيب . (فالديفيا) الذي أكل المحاربون قلبه ، (ماك ليون) الايقوسى الذي مات مجنونا من الرعب .. أية أسماء من الجحيم تلك ؟ لقد طالما أرجفت الصخر من الرهبة وأسكرت الآفاق دما وذهبا !

على أن هذا اللقاء المأسوي قد نسى هناك الآن او كاد . حضارات ما قبل كولومبوس بقيت تماثيل مصعوقة هنا وهناك ، آباء من حجر لابناء مجهولين أو عقوقين . واذا كان الامريكي الشمالي ما يزال مؤرقا بعقدة الهندي يصور أفلام الهنود ، في محاولة يائسة لتهدئة وجدانه القلق ، وللهرب من ذلك الاتهام الداخلي الذي يقرضه، فان احفاد الاسبان لم يحتاجوا الى مثل ذلك في القارة اللاتينية . لقد افتداهم بعض الاسبان المحررين في القرن الماضي : (بوليفار) (سان مارتين) ، (كاريرا) ، (مارتي) ، مجدا ببطولاتهم أيام التحرير ، ذلك الحقد، بينما كان أحفاد الفاتحين قد اندمجوا في الخضم الهندي الذي افترسوه ، لان الحضارة التي كانت تنمو وراءهم في اسبانيا كانت حضارة غير أصيلة . كانت يقظة سيف لا يقظة روح فكرية . تركتهم هناك للانحلال لانها لا تستطيع أن تكون معهم . وهكذا ذابوا وذاب معهم ملايين الزنوج الذين كانت تقيئهم لهم مراكب النخاسة والقرصان على الشواطىء .

وهكذا ظل الهندي القديم سيد القارة اللاتينية ، الا يظهر بنقائه المغولى النحاسي في أكثر من ١٥٪ من سكانها ، فانه يظهر مزيجا بالابيض أو الزنجي في ٦٠٪ من السكان . وأما الابيض من سلالة الفاتحين أو من المهاجرين فلا يحتل اكثر من ١٥٪ من الملايين المائتين التي تعمر القارة .. والخلائط العرقية واضحة الملامح لما تندمج بعد هناك في كائن جديد . فاسبان وزنوج وهنود وألمان وعرب وايطاليون مجموعة جنب مجموعة. وانما يجمع الناس الولاء للثروة الهائلة في الارض ، لا اللقاء التعاطفي او الروحي بين قلب وقلب ..

وتمتد القارة بعد ، كالكف المعطاء الكبير ، لهذه الملايين : جغرافيتها ليست أكثر من عمود فقري في

الغرب يتمرد جبلا وفاهات براكين وقمما تعضها الثلوج ثم سهول في الشرق ، ترضعها الجبال نهرا بعد نهر • من الاورنيوك الى الآمازون ، النهر ـ الاب ، الى البارانا •• وطبيعة وحشية الجمال ، حتى الالم • أتذكرون تلك الصفحات التي كتبها (شاتوبريان) ذات مرة ؟ اني لفي ريب من أن يكون أحسن حقا بذلك المحيط اللانهائي من الحضارة والحياة الراعشة فيها وهي تمور !

انها غابات حتى لتغني النار والفأس • وقمم زرق كأسنان التنين الجبار ، وعصائب طير ملون كما لو جمد قوس قزح على هذا الجناح أو ذاك ، ووحش يدب أو يزحف وسط الدغل الابكم ، ونجمة عارية مجنونة تتأمل أعماق الجلد ، وزهرة (كوبهو) أو (أوركيده) نبيلة من أرستقراطية الزهر ، وجذور ملتفة بأغصان كحقد قلب وخصب ، كما لو انهلت الدوالي زقاق خمر ، وشلالات كأسهم غاضبة تريد العودة الى الارض ، وسهول تلهث لتدركها الآفاق ، وعليق ومستنقعات وخلجان •• كل ذلك فوق الكنز المرصود في الارض ، من عروق فحم وزمردة كالحصى ، وطبقات من فضة وذهب وأهوال من النحاس والرصاص والقصدير والنترات والحديد والبلاتين •• تلك قارة الغد وثروة الانسانية للغد •

وما عرفت هذا العالم بعد ان لم تعرف أن هذه الثروات لم تزل في عطائها الاول ، لم تنفذ أصابع الانسان بعد الى قلب القارة فتستنزفه • وما عرفت هذا العالم بعد ان لم تر قطعان البقر ، كالمد الاغبر ، في (بامبا) الارجنتين ، وعيون عمال المناجم المنطفئة في شيلي ، وحبة البن السمراء تملأ ما بين البرازيل وكولومبيا وغابات قصب السكر في كوبا ، ونزيف البترول في فنزويلا •• وما عرفت هذا العالم بعد ان لم تذكر أن الحضارة والناس انما تطيف به من أطرافه فحسب ، وتتهيب ، حتى الآن ، أعماقه تعيش على الشطئان وتتقطع خطاها قبل الغابة • ان أعظم مدن القارة انما تنتشر ، كالعقد المضيء ، على الحواشي المستحمة بالبحر أو التي تكاد : من ريو الى بونس أيرس الى سانتياجو وليما الى بوجوتا و كاراكاس • هنا كل ترف الحياة الحديثة وآلائها وألفها الماتع • وما من أحد هناك في الاعماق الامازونية • وحدها تجثم الاشجار والصخور والمياه والافاعي وعصائب الطير وقطعان الوحش ورهبة الخلق الاول • بلى ! قد ينطلق سهم جديد بغتة أو تظهر عيون هندي بدائي بين الاوراق المتكاثفة ، كحقن من دم •• فثمة ينتهي مدى الانسان الذي هو نحن لتبدأ دنيا الانسان الذي هو جزء من الغاب ! لقد كان بناء (برازيليا) مغامرة انطلاق ، رمز تغلغل نحو ما هو الامازون !

أما فيما بين الاعماق والشاطىء المجدود ، فان نشيج القناديل ما يزال هناك • وافتراس العجول على النار الضخمة ، وشرب الكحول الرديء في المراعي ، وعصيات (كوخ) في الصدور وشحوب الملاريا في العيون • ولا فرق بين المدثر (بالروانا) في كولومبيا أو (الفوشو) في الارجنتين ، كلهم أعطاه النحاس ، نحاس الارض ، لونه ، وراء العيون اللامبالية السوداء ، وان لم يعطهم مقاومته •• فمتوسط الاعمار هناك لا يزيد عن خمس وعشرين سنة •• وأما الامية فقد منحت الناس كل طمأنينتها الحيوانية فمتوسط من اتصل بالالفباء منهم لا يزيد عن ٤٠ بالمائة !

وللكنيسة ، بعد ، الرواق المحدود هناك • واذا كان خليفة بطرس الرسول يحمل تاجه في روما فانه ينصب عرشه الحقيقي هناك • فيما دون أرض المكسيك حتى سهوب (باتاغونيا) الحائرة في الجنوب • أليس نصف (كولومبوس) قسيسا ؟ • اذن فلا فرنسا ولا اسبانيا ، في كثلكتها ، تعدلان ركوع رؤساء الجمهوريات اللاتينية أمام الاسقف الرسولي ! والمسوح السود في كل بيت • وللكنيسة أرض الاقطاع واليد السياسية التي ترفع وتخفض ، وتكوين العقول للغد • الله وقيصر يعيشان هناك على عرش معا ! لا يأخذ قيصر ماله الا في

المكسيك • أما وراء ذلك فالقداس يعيش في رئتي الدولة والشعوب جميعا ففي كل نفس منهم ناقوس يدق ، وصلاة علوية ترتل !

وأما الحكم فللديمقراطية البرلمانية منه الاسم ، وللأوليغاركية أو البلوتوقراطية أو الاتوقراطية وهذا المعجم من (القراطيات) الباقي •• الاقلية هناك هي التي تضع ارادتها في أفواه القضاة وعلى مكاتب الحاكمين ومنبر البرلمان ! لقد تكون مالكية أو مالية أو عسكرية ولكنها هي الفئة الحاكمة دوما عهدا بعد عهد • وهي هي في الزيف والاستغلال والدجل الشعبي • انهم يدورون في فراغ العقيدة • ما تزال الديمقراطية فيهم (ايديولوجية) مستعارة ، وغير مفهومة بالرغم من التبجح الديمقراطي ، ومن تاريخ استقلالي يرقى الى ما بين مائة ومائة وخمسين سنة • ان التكوين الاثنولوجي والاجتماعي ـ الاقتصادي يكشف هناك عن مساوىء الديمقراطية لا عن وجهها المشرق • يجعلها مزرعة استغلال لا وسيلة رفاه شعبي •

وتستريح الولايات المتحدة الى جاراتها اللاتينيات منذ نصبت بينهم وبين العالم ـ غير الامريكي ـ سدا من مبدأ مونرو • هذا المبدأ الذي حال في آخر صور تطوره الى (منظمة الدول الامريكية) • فالقارة اللاتينية ، دنيا من الثروات ، ألقتها لغة الجغرافيا لاستثمار (اليانكى) و (الفرينفو) ! عشرة الاف مليون دولار تبعثها الجارة الشمالية في عروق القارة لتنزف وتنزف من كل شيء • ان الولايات المتحدة هناك : هياكل المنيوم ممردة ، وسمفونيات من الاسمنت كالاطواد ، ومنجم يهترىء فيه الجسد ، ودولار رواغ ذو وجه أزرق ! الامازون الحقيقي ليس ذلك النهر الذي يسيل في عرض القارة ولكنه ذلك الذي يتدفق ذهبا من عروقها ، في (وول ستريت) بنيويورك !

منذ أشهر زار رئيس الجمهورية الكولومبية امريكا ، فأكرمه نلسون روكفلر حاكم نيويورك بأن وهبه خمسين ألف هكتارا •• من أرض كولومبيا ! ان في تاريخ الفتوحات الاسبانية قصة رواها شاعر شيلاني معروف ، تذكر أن (بيسارو) الفاتح الوحش ، انتصر على ملك بيرو بسنابكه • وسيق الملك المغلوب (آتاهيالبا) أسيرا جريحا الى السجن • ودخل (بيسارو) عليه فوجد على أعالي الجدار خطا أحمر من دمه • كان يحاول الهرب • اذن فعلى البيروانيين أن يملأوا ثلاث غرف بالذهب والفضة •• حتى ذلك الخط الاحمر !

وأخذت العربات تذهب وتجيء تحاول دون جدوى تغطية ذلك الخط •• ويظهر أن هذه العربات ما تزال منذ (٤٠٠) سنة تذهب وتجيء ، محملة بالسكر والنحاس والبترول والنترات والقهوة والمطاط والموز والرصاص والبلاتين •• دون أن تصل الى الخط الاحمر ••

* * *

النور الأحمر

قصة بقلم : صلاح الدين كريمي

عندما وصلت « أم فواز » الى تقاطع شوارع المجلس النيابي ، كان قد مضى على خروجها من الدار ما يقرب من ثلاث ساعات أمضتها في شوارع دمشق تائهة حائرة .

وما ان لمحت المارين يطيعون اشارة النور الاحمر ، ويقفون ليتركوا مجالا للسيارات كي تمر ، حتى وجدت فرصة لتريح قدميها بالوقوف بعض الوقت ، فاتكأت الى جذع شجرة على الرصيف ، وسرحت بعين خيالها في هذه الساعات الثلاث التي كانت فيها على غير هدى .

وسمعت الى جوارها من يقول لصاحبه :

ـ ها قد بلغت الساعة السابعة وما فزنا بطائل .

وكأنها أحست ان هذا القول موجه اليها بالذات ، وشعرت هي أيضا بأنها لم تفز بطائل طيلة هذه الساعات الثلاث ، ولم تحقق ما كانت تبغي منذ خروجها من الدار ، وتساءلت في نفسها ما اذا كان من الممكن أن تحقق مع ذلك القائل طائله وطائلها في وقت واحد ، وأجابت نفسها بأنها قد لا تلتقي واياه في طائل مشترك ، واقتنعت باجابتها على نفسها ، وسرحت من جديد في تيهها الذي عاشت فيه ثلاث ساعات .

ولمحت في موقفها خيال « فواز » على سريره الصغير ينعم باحلامه البريئة الصغيرة ، وتذكرت كيف ودعته بقبلة طويلة قبل خروجها من الدار ، وبهمسة ناعمة تبين فيها ان غيابها عنه لن يطول اكثر من حاجته الى النوم ، فأمضها الخيال ، وهزت كيانها ذكرى القبلة ، فاختلجت وهي واقفة ، وأمسكت بالشجرة لتداري أمرها ، وفاتها ان تطيع اشارة النور الاخضر وتسير مع السائرين ، وفضلت ان تبقى في مكانها حتى تعود الى نفسها هادئة مرة أخرى . وهنا سمعت خلفها من يقول :

ـ لعلها تنتظر أحدا . لقد اتعبتنا والله .

فأحست انها مراقبة ، وان هناك من يتحسس خطواتها ، والتفتت لترى وجهين جميلين ينضحان حيوية وشبابا ، ولاحظت انها رأتهما مرارا في طوافها التائه المرير ، تارة امامها وتارة من بعيد واخرى الى جانبها ، فشعرت ببعض النشاط والقوة ، وزال عنها ومض الاضطراب الذي ساورها ، وما تدري ، أهو بسبب الخوف أم بسبب الراحة ، وما كادت تهتم على أمر ، حتى عاد النور الاحمر من جديد يقطع عليها الطريق ، فاستندت مرة أخرى الى الشجرة ، وسمعت أحد الوجهين يقول :

ـ اني احب النور الاحمر حبا جما ، ليته يبقى أحمر ، ليت الدنيا كلها حمراء .

وكادت تضحك ، انه حديث خفيف موجه اليها ، فماذا تفعل ، هل تستجيب ؟

هنا تذكرت مهمتها في هذه الساعات الثلاث المنصرمة ، كيف خرجت غاضبة حانقة ، راغبة في أمر لا ترضى عنه وانما يدفعها اليه حقدها على هذا الزوج الاحمق الابله ، الذي لا يعرف لها كرامة الانثى ، ولا يجد فيها الا المتعة الرخيصة ، ولا يبقى لديها الا لحظات لازمة لحاجاته اليومية دون ان يشعرها بما يجب وجوده بين الزوجين من رابطة مقدسة حلوة تشدهما الى بعضهما بعضا .

وعادت تسمع أحد الوجهين يقول من جديد :

ـ ها قد ظهر النور الاصفر ، وسيبدو بعده النور

الاخضر ، لنسر معا ايتها الحلوة قبل ان يداهمنا النور الاحمر من جديد .

كم راعتها هذه الجرأة .

لم تجد ، لسوء الحظ أو حسنه ، عندما التفتت الى الخلف ، سوى الوجهين يحدقان فيها أي تحديق . ووجدت نفسها ترسل الى شفتيها ابتسامة لم ترسم عليها أي معنى ، ولكن الوجهين وجدا فيها كل المعاني ، وكأنهما عثرا على كنز مفقود طال البحث عنه ، فأحاطها أحدهما بذراعه ، وسار بها في زحمة المارين الذين تكاثروا اثر ظهور النور الاخضر ، وقطع معها الطريق الى الرصيف الآخر ، دون ان يبدر منها أي شيء ، ولعلها أخذت بجلبة المارين المسرعين قبل ان يتغير نور الطريق ، أو بعنف المفاجأة ، أو لعلها وجدت في ذلك راحة نفسها المضطربة ، او لعلها اخيرا وجدت ما كانت تبغيه من هذا التيه الذي استمر ثلاث ساعات في طواف لا ينتهي على الارصفة .

وسارت في هدوء مع خطوات الرجلين ، دون أن تلاحظ في نفسها أية مقاومة ، وراحت تستمع الى حديثهما في شيء من اللهفة ، لترى ما هو الجديد فيهما ، فاذا بها تسمع ما لم تسمعه ، واستقر بهم المسير في مطعم انيق ذي زوايا شاعرية ، وجعلت من نفسها اذنا تسمع وعينا ترى ، فشاقها ما سمعت وراقها ما رأت ، وخجلت من أمرها كيف لم تدخل هذا المكان من قبل ، وحنقت على زوجها كيف لم تسمع منه مثل ما سمعت ، ورأت في حياتها رتابة مملة وضياعا مخيفا ، وراحت بدورها تسرد ما جال في خاطرها منذ أن خرجت قبل ثلاث ساعات ، في شيء من التردد وعدم الوضوح ، وهما منصتان في ذهول ، متطلعان الى جمالها وعذوبة حديثها في شرود .

وذكرت عن زوجها انه من تجار البزورية الاثرياء ، وان ماله اشتراها من أهلها بسعر الدرة الثمينة ، وانتزعها من جامعتها انتزاعا رغم وجود معترضين في أهلها على ذلك لفارق الثقافة بينهما ، حين تحدثوا عن فشل زواج أحد طرفيه لا يحسن كتابة رسالة والطرف الآخر كاد ينهي حياته الجامعية .

وتنهدت وهي تتذكر هذه النبوءة ، وراحت تسرد فصول هذا الفشل وتؤكد صبرها عليه ومحاولاتها لدرئه دون جدوى ، وبينت انها مع ذلك لم تخدش قدسية هذا الزواج في شيء رغم ان زوجها لم يتورع عن ذلك ، في سهره المستمر وتغيبه أياما عديدة عن الدار .

وران عليها الصمت وهي تزدرد بعض ما وضع على الطاولة ، وعادت الى خيالها تتذكر كيف خرجت اليوم مستقرة على رأي ، وراحت تتطلع أمامها الى الوجهين عساها تجد فيهما ما افتقدته في الدار ، وساءلت نفسها ما اذا كانت قد نجحت في ذلك .

هذا الوجه الاسمر المتناسق القسمات ، ذو الشارب الرفيع والشعر اللامع ، هل تجد فيه بغيتها وضالتها ، هل يثير في نفسها ما لم يثره وجه آخر ؟ هل يغذي في روحها السغب الذي توده معنى لا مبنى ؟

وذاك الوجه الثاني ، الذي تبدو منه ملامح من العاطفة . أهو الوجه الذي تخيلته وهي تقرأ روايات شكسبير واشعار هيجو وقيس ؟

وبعد فترة صمت طويلة عادت تقول :

كان يجد في أي كتاب بين يدي صورة لعشيق ، وكان عشاقي كثيرين ، مع انني لا أمسك الكتاب الا بعد ان انهي امور المنزل جميعا ، ولكنه يغار ، يغار مني لانني فوق مستواه ويعجز عن مجاراتي فيما أقرؤه ، ويغار علي من هؤلاء العشاق الكثر ، حتى وصلت به الحال الى تمزيقها ، وزاد به الامر أن وصمني بالخيانة ، قال انني أجد لي عشاقا تصفهم هذه الكتب ، عندما اغيب فترة عند أهلي أو صواحبي .

ما ابشع افتراءه ، كان ذلك نقطة انطلاقي اليوم ، لم أعد اصبر على اتهامه ضدي طيلة الاشهر الخمسة الماضية ، وقد عولت على أمر ، وما أدري كيف أبدأ ، واجهل كيف انتهي .

وران الصمت من جديد عندما بدأ الخادم يزيل ما على الطاولة ، ووجدت في نفسها حرجا من البوح بأكثر مما باحت .

ذلك هو سرها ، هل تفسره بأكثر مما باحت به ؟
وسألت نفسها لاول مرة بعد خروجها من الدار :
هل انا على حق ، هل ابيح لنفسي ان الطخ ثوب العفة الذي ارتديه .

وراحت تبحث عن الجواب في قسمات الوجهين .

بدأت بدورها تصغي من جديد ، واحتفظت بما كانت تود البوح به ، ولاحظت ان ما كانت تسمعه منهما قد انتهى ، فرغت جعبة الوجهين من الكلام المعسول ، وعادت الفاظهما تافهة ، وأفكارهما سخيفة ، لا روح فيها، ولم يبق أمامها سوى شهوة عارمة تفح من عيون أربعة ظامئة ، وتذكرت انها رأت مثل هذا الفحيح في أيام زواجها الاولى .

ما أغباها اذن ، كادت تفرط بطهرها بنزوة عابرة ، وتنبهت الى ساعة الحائط وهي تدق التاسعة ، وسمعت بصوت خيالها ابنها (فواز) وهو يبكي بلا انقطاع ، لقد حانت ساعة اطعامه ، ولمحت زوجها وهو يداريه مغتاظا، فنهضت مذعورة ، واتجهت نحو الباب دون ان تجيب أحد الوجهين وهو يقول :

ـ ايتها المجنونة .. الى اين ؟

ودعت اول سيارة صادفتها ، وسارت بها الى دارها، وكم عجبت انها اجتازت تقاطع شارع البرلمان مع النور الاخضر دون توقف ، وعندما وصلت الى الدار ، وجدت كل شيء هادىء فيها ، فزوجها لم يكن قد عاد بعد ، و (فواز) ما زال على سريره يحلم وفي شفتيه الصغيرتين ابتسامة ملائكية ، فتنهدت بعمق ، وخاطبت سماءها قائلة :

ـ غفرانك يارب ، وحمد لك يارب ، أشهدك على طهارتي ، واعاهدك على العيش في نار زواجي وان حرقت ، راضية بقسمتي وان ظلمت .. ودخلت غرفة نومها مطمئنة ، واشعلت نورها الاحمر وهي تغير ثيابها ، واستلقت على سريرها وشرعت في البكاء بدموع كأنها الجمر الاحمر .

دمشق — المحامي صلاح الدين كديمي

أغنيات حب الى ماريانا

شعر : سليمان عواد

- ١ -

كانت كلماتك الحلوة

تنهمر بعذوبة في قلبي

كأغنيات بيضاء

يرسلها ثغرك القرنفلي المسكر ..

انت حمامة من الجنة

هديلها يأخذني الى مدائن

تغرق في بحر الجمال والسعادة ..

- ٢ -

حين كنا نتغازل

كنت اشعر بقلبك الملتهب

كيوم افريقي في ريعان الصيف

يحرسني بجناحيه المعطرين

بكل طيوب البحار والغابات الاستوائية ..

بعد فترة وجيزة

لم أحس الا بتفجر الاغنيات الحارة

في قلبي

وسريان النار في دمي ..

- ٣ -

لقد احببت حديثك البارحة

بصورة مذهلة

لانه دفق في روحي

كل افراح العالم ..

لانه حلق بأحلامي

الى قارة عجيبة

لم تخطر على بال الشعراء ..

- ٤ -

لو كان بمقدوري

ان اوزع بعض ما يختلج في أعماقي

من الحب لعينيك يا ماريانا

ترى ..

ألا تسطع في افئدة البشر جميعا

نجوم ، كواكب ، اقمار

مثلما تسطع في السماء

النجوم

الكواكب

الاقمار ..

في ليلة ربيعية دافئة !! ..

- ٥ -

هذه الطيور الشاردة

من هدم اعشاشها

وجعلها تهيم على وجهها

كأفكار شاعر غريب ..

افردي لها مكانا في نفسك

يا ماريانا

انها بعض اغاني قلبي

انها اغاني الوردية لعينيك ..

- ٦ -

يا حمامتي الحلوة

ان قلبك النقي كحلم جميل

يعاني آلاما كبيرة

آلاما لا يحتملها الا الشهداء

الابطال

العباقرة ..

ان قلبي يذرف الدموع الحزينة

أسفا

على قلبك الكبير

الذي يتعذب بصمت ملائكي

في بطولة رائعة ..

سليمان عواد

العقل الأول عند الفاطميين

بقلم : الدكتور محمد حاج حسين

عرف الدكتور محمد كامل حسنين المثل والممثول تعريفا جامعا بقوله : « استخدام العقل في الموازنة بين الخلق والدين والاستدلال بالمحسوسات على المعقولات هي النظرية التي نسميها « نظرية المثل والممثول » وقد توسع الاسماعيلية في استخدام العقل لهذه الموازنات الى حد بعيد جعلهم ينكرون على الفرق الاسلامية الاخرى علومهم الدينية لان هذه الفرق ولا سيما جمهور أهل السنة استمدوا علومهم من المحسوسات ولم يأبهوا بالمعقولات » .

والاسماعيلية في هذه النظرية تلاميذ للمدرسة الافلاطونية ، فقد اتخذوا من فكرة المثل الاساسي الاول لعقيدتهم الدينية بعد أن صبغوها بالتعاليم الاسلامية . وذلك انهم آمنوا بعقل فعال هو أول الموجودات التي فاضت من الله عز وجل . وقالوا انه حد له صفة المذكر ، وبتوسط العقل الفعال فاض منه حدثان هو النفس الكلية ، وله صفة التأنيب . والعقل الفعال في العالم العلوي يقابله النبي الناطق في عالم الطبيعة . والنفس الكلية يقابلها الوصي . وعند وفاة الناطق الذي هو الفعال يأخذ مركزه الامام ، فيصبح له جميع الصفات والاسماء والافعال التي كانت للناطق . ونستطيع الآن أن نفهم مبالغات ابن هانيء الاندلسي في مدح المعز لدين الله الفاطمي ، فهو عندما يطلق عليه اسم الله ويصفه بصفاته يعطيه الالقاب والاسماء المعطاة للعقل الفعال لان الباري عز وجل فوق الاسماء ، وفوق الصفات . وأسماء الله الحسنى مخصصة للعقل الفعال . وكانت في المعتقدات الاسماعيلية جميعها تطلق على النبي محمد باعتباره مثل العقل في عالم الطبيعة . وبعد وفاة محمد تسلم علي الذي هو مثل النفس الكلية مركز محمد ، واختص بهذه الاسماء أيضا وبعده تسلسلت في الأئمة حتى الامام المعز لدين الله الذي كان أساسا للدعوة باعتبار كل امام سابع هو أساس للأئمة الستة الذين يأتون بعده .

وهكذا تبدو نظرية المثل والممثول بوضوح في الحدود الروحانية والجسمانية . ويؤمن الدعاة جميعا بهذه العقيدة ، فالامام هو مثل العقل الاول . وقد وعى ابن هانيء هذه النظرية ، ورددها في شعره . ومن هنا جاء اتهام القدماء له بالزندقة .

يقول في المعز :

فكبرت الفرسان لله اذ بدا
وظل السلاح المنتضى يتقعقع

ويقول :

يوم تجلى الله من ملكوته
فرآك في المرأى الجليل جليلا

فالمعز لدين الله باعتباره مثل العقل الاول له كل الحق في هذه التسمية . يقول جعفر بن منصور اليمني باب الابواب في دعوة المعز لدين الله .- وهي رتبة سامية عظيمة نجهل عنها كل شيء - « فكل قائم في عصره هو اسم الله الذي يدعى به في ذلك العصر »[1] وفي هذا يقول الامير تميم بن المعز لدين الله في أخيه وامامه العزيز بالله :

ليهنك أن الله فوقك مالك
ودونك كل المالكين عبيد

---

(١) الكشف ١٠٩

فالامام مثل العقل الاول الذي ليس فوق مرتبته مرتبة . يقول قاضي قضاة المعز لدين الله النعمان : « ينبغي لمن عرف الائمة أن يخافهم كما يخاف ربه ، ويتقيهم كما يتقي الله . »[٢] وآية ذلك ان الله تعالى أول ما خلق العقل وهذا أسبق الحدود الروحانية الى معرفة الله وتوحيده وحجة قائمة على وجوده ، ولهذا سموه السابق أو المبدع الاول ، وهو القلم أيضا . ودعموا هذه العقيدة بالحديث المنسوب الى النبي صلى الله عليه وسلم : « أول ما خلق الله العقل . فقال له : أقبل . فأقبل . وقال : أدبر . فأدبر . فقال : بعزتي وجلالي ما خلقت خلقا هو أعز منك . بك أثيب ، وبك أعاقب . »

فالعقل هو المبدع الاول وهو حرف الكاف من كلمة كن التي خلقت بها السماء والارضون ، فهو المدبر للكون . وله الاسماء الحسنى ، وهو الواحد الاحد ، وهو جامع للصفات التي وصف الله بها نفسه في القرآن الكريم . ولهذا كان ابن هانيء الاندلسي يرى أن مديحه للمعز كمديحه لله :

أرى مدحه كالمدح لله انه
قنوت وتسبيح يحط به الوزر

ويردد دعاة الفاطميين هذه الفكرة ، وهي ان الامام مثل العقل الاول . يقول داعي الدعاة القاضي علي بن حنظلة بن أبي سالم الوادعي :

فقام بالتوحيد فيهم ناطقا
ثم استحق أن يسمى سابقا[١]
فطوقته عادة المنان
بها انتهى الى الكمال الثاني
وصار حقا مطرح الشعاع
وأولا في عالم الابداع

وبسبب هذه القصيدة كان ابن هانيء يرى أن مآثر امامه كمآثر القرآن الكريم :

هذا الذي تتلى مآثر فضله
فينا كما يتلى الكتاب المنزل

وهذا لان « العقل مجمع الصور ، فمنه خلقت ، وهو اسم الله الاعظم »[٢] ويقول المعز لدين الله في مناجاته « الهي أوجدتني منك في ظاهر الامر بصفة كانت الموجودات على دفعة واحدة ، فأنت بي باطنا . وأنا بك ظاهرا . الهي ظهرت الموجودات كلها بي . الهي وصلت اليك ، ومنك دخلت عليك . فأنا قدرتك الظاهرة ، ومني ظهرت آياتك الباهرة . ويقول أيضا في نفس المناجاة : « الهي أنا الكرسي والمكان ، والوقت والزمان ، وأنا منشيء المثقلات ، وأنا لك عالم ما يكون وما كان . الهي أنت ذاتي ونفسي ومعدني وقدسي ونطقي وأنسي . ألا ففي اختفيت فأشرقت . وبي اقتربت فأبرقت . أنا نظرتك بكلمتك الالهية ، ومكانتك القدسية ، وذاتك الابدية . والذات الازلية الكلية ونورك ، وفي ظهورك بك ظهرت ، وبي نهيت وأمرت . » فالمعز لدين الله يرى نفسه مثل الله في الارض . ويوضح هذا المعنى في نفس هذه المناجاة : « الهي كنت رتقك قبل أن تظهر في بفتقك ، وأوجدت عني خلقك ، وصدرت عني دنياك في الذات والاسماء والصفات . ولست أنا بك متصلا ولا عنك منفصلا اذ أنا بك تبعيض ، وأنا راجع اليك عند النقلة والتفويض ، أنقل الصورة كيف تشاء ، وأعط النور الالهي لمن تشاء . الهي اني كما أنت عظيم في سلطانك ، وأنا قدرتك وبرهانك وارادتك ومكانك »[١] وهكذا رأى المعز نفسه قدرة الله وبرهانه ، وارادته . وردد ابن هانيء هذا المعنى كثيرا في شعره كقوله :

صورت من ملكوت ربك صورة
وأمدها علما فكنت الروحا

فهو يقول : ان الله خلق العالم صورة من ملكوته ، ثم نفخ فيها روح علمه ، فصارت روحا . وهذا راجع

---

(٢) الهمة في آداب أتباع الأئمة .

(١) سمط الحقائق في عقائد الاسماعيلية .

(٢) رسالة الاسابيع للداعي قيس بن منصور الداديتجي ١٦٠

الى أنه مثل العقل الاول فهو خلق كامل مبرأ من كل نقيصة احتاز الكمال لان « الناطق في عالم الدين لما كان مثلا للعقل الاول في دار الابداع كان كونه علة لوجود العقول الطبيعية بما أقامه من السنن والوضائع ، وبسطه من الحكم والشرائع في علم الدين موجبا ان الابداع الذي هو المبدع الاول والعقل الاول علة لوجود العقول المنبعثة في عالم القدس . وكونه من الكمال على النهاية التي يستغنى بها عن أمثاله من البشر في بسط البركة والسياسة الالهية واستجرار النفس الى حظيرة القدس موجبا ان العقل الاول في الكمال على النهاية التي استغنى بها عن غيره من اقامة الحكمة ، وكونه ذا نسبتين : نسبة الى عالم القدس ، ونسبة الى عالم الطبيعة ، أعني الناطق ، وكون الموجود عنه اثنين بحسب النسبتين احدهما وهو الاشرف ، وهو الوصي الذي أقامه مقامه ، وأخبر الله تعالى بأن نفسه كنفس محمد صلى الله عليه وسلم وآله في آية المباهلة بكونه في التمام والكمال كما هو »[1]

فالامام من الكمال على النهاية التي استغنى بها عن أمثاله من البشر لانه مثل العقل الاول ، ونفسه كنفس محمد صلى الله عليه وسلم . ومن هذه العقيدة استمد ابن هانيء فيضا غزيرا من المعاني شدابة فهو يخاطب المعز لدين الله كما يخاطب الله ، ويخلع عليه صفاته :

قد جالت الاوهام فيك فدقت
الافكار عنك فجلت الآلاء

فعنت لك الابصار وانقادت لك
الاقدار واستحيت لك الانواء

وتأمل فيه ، فرأى موضع برهان ، ولكنه لم يستطع أن يتبين موضع تكييف وتحديد :

أتبعته فكري حتى اذا بلغت
غاياتها بين تصويب وتصعيد

رأيت موضع برهان وما
رأيت موضع تكييف وتحديد

(١) الكرماني : راحة العقل ١٠٢

ووجد أن الناس كلهم لغو . والامام هو الحقيقة :

وأرى الورى لغوا وأنت حقيقة
ما يستوي المعلوم والمجهول

والناس ان قيسوا اليه بدوا كالعرض بالنسبة الى الجوهر :

والناس ان قيسوا اليه فانهم
عرض له في جوهر محمول

فالامام قد بلغ الكمال لانه من جنس العقل الاول. وعلل الكرماني فيلسوف الاسماعيلية هذه العقيدة بقوله : « ثم لو كان الموجود الاول الذي هو العقل الاول فيضا من المتعالي سبحانه وعظم كبرياؤه لوجب أن يكون العقول الخارجة عنه من القوة الى الفعل في دار الطبيعة التي هي عقول النطقاء والاسس والائمة من جنس العقل الاول ومشاكلته في قيامها بالفعل ونيلها التمامية . وكون العقل الاول فيضا ، وكون الفيض من جنس المتعالي من الصفات سبحانه أن لا يعتاض عليها الوجه في تناول المتعالي سبحانه انباء عنه بما يليق به من الصفات ولا يعجز عن ذلك ، ولكانت العقول تستحق أن تسبح بالتسبيحات الموجهة نحوه تعالى كبرياؤه من حيث نفس الصفات بكونها مثله »[1] ولان الامام مثل العقل الاول كانت قدرته كقدرة الله تعالى : فالاقدار طوع بنانه :

ألا انما الاقدار طوع بنانه
فحاربه تحرب أو فسالمه تسلم

والقضاء مسخر له ، والمنون وفق ارادته تصدع بأمره عندما يريد :

فيعفو القضاء اذا ما عفا
وتسطو المنون اذا ما سطا

وعناصر الكون مسخرة له ، فالبحار قد ألقت اليه مقاليدها ، وعنت له الكواكب والشمس والقضاء لانه مثل الله تعالى . يقول ابن هانيء :

(١) راحة العقل ٧٠

لالقت اليه الابحر الصم أمرها
وهبت بما شاء الرياح السواحك

وما سار في الارض العريضة ذكره
ولكنه في مسلك الشمس سالك

* * *

أما كواكبها له فخواضع
تخفي السجود ويظهر الايماء

والشمس ترجع عن سناه جفونها
فكأنها مطروفة مرهاء

* * *

لو أبصرتك الروم يومئذ درت
أن الاله بما تشاء كفيل

فقدرة الله قد انتقلت الى الامام الذي أشرقت الكلمة العليا منه كما قال الداعي شهاب الدين أبي فراس : « ان التوحيد هو صفة للموجب المجيد ، وهو العقل الفعال ، وأحد الحقيقة ، والمبدع الاول ، وينبوع الوجود ، ومصدر العدد ، فمنه اشراق الكلمة العليا ، ومبدأ الوجود ، وابتداع المنزه المعبود ، والواحد الفرد الصمد الذي من جوهره وجدت الموجودات فلزقها صفة الاعداد والازواج والافراد ، واليه عودتها حين المعاد . فالوحدة معنوية ، والاحديه علنية ، فواحديته من أحديته ، وأحديته أوليته ، وأوليته أخرته ، وآخرته في أوليته ، فهو محدث البدايه ، وأزلي النهاية ، عنه ظهرت المبدعات ، فهو الحجاب الاعظم ، والاسم المعصم، صانع المصنوعات ، المنزه عن النسبة والاضافات ، وهو حرف الكاف من كلمة كن » .

ولهذا نفى الفاطميون الصفات عن الله ، ونزهوه عنها ، ومن ثم جعلوا أسماء الله الحسنى للمبدع الاول الذي سموه السابق والقلم الذي يعرف عند الفلاسفة بالعقل الكلي مضيفين عليه جميع الصفات التي جعلها الفلاسفة لهذا العقل متأثرين الى حدبعيدبآراءالفنوسطية.

وهذا السابق أو القلم ممثول الامام . ولهذا خلع الفاطميون على الامام هذه الصفات التي يتصف بها السابق . وها هو ابن هانيء الاندلسي ينطلق في أثرهم يضفي على المعز لدين الله صفات الله التي وصف بها نفسه في القرآن الكريم :

ندعوه منتقما عزيزا قادرا
غفار موبقة الذنوب صفوحا

فهو المنتقم العزيز القادر غفار الذنوب ، وهي نفس صفات الله في الذكر الحكيم ، وقد نزهت الاسماعيلية الله عنها ، وجعلتها للعقل الاول . يقول جعفر بن منصور اليمن : « الباري الذي لا تدركه صفات الخلق ، ولا دنس ولا تغيير زمان »(1) . وعماد التوحيد عندهم نفي هذه الصفات (2) أو على هدي هذه العقيدة سار ابن هانيء في شعره ، فنزه الله عن الصفات ، وأسبغها على الامام :

ما شئت لا ما شاءت الاقدار
فاحكم فأنت الواحد القهار

فقد لقب المعز بالواحد القهار ، وهما من أسماء الله الحسنى التي نزهوا الله عنها ، وخلعوها على الامام لانها « من حقه وأسماء خصه الله بها » (3) وأفضل الصفات وأعلاها ما جعلها الله تعالى في بسم الله الرحمن الرحيم ، وأفضل الاسماء ما جعلها في قوله لا اله الا الله (1) . أما سائر الصفات والاسماء ، فهي أسماء وصفات للعقل الاول ومثله الامام . ولهذا نستطيع أن نفسر اندفاع ابن هانيء في وصفه المعز بصفات الله :

ويا رازقا من كفه نشأ الحيا
والا فمن أسرارها نبع البحر

ويقول :

---

(1) زهر المعاني ٦٥ عن المنتخب .
(2) راحة العقل .
(3) القاضي النعمان : الرسالة المذهبة ٢٩ .
(1) رسالة الاسابيع ١٦١

رأيتك من ترزقه يرزق من الورى

دراكا ومن تحرم من الناس يحرم

ويقول جعفر بن منصور الين : « ولله الاسماء الحسنى ، فادعوه بها يعني الله الائمة الهداة والرسل الذين اختارهم ، وتقربوا اليه بطاعتهم . » [٢] ويقول المعز : « فمن عرفني ، فقد نزهك ، ومن اتصل اليك بحدودي ، فقد عرفك . فأنا الذي لا تدركه الابصار ، وأنا أدرك الابصار ، وأنا اللطيف الخبير . فاللطيف الخبير صورتي بالصورة المرئية التي هي الحدود العلوية » .

فالامام هو مصدر النور والعرفان ، بل هو مصدر الثواب والعقاب الذي يتقبل أعمال العباد . وفي هذا يقول جعفر بن منصور اليمن : « ان العقل مثل على آدم ،فكان ذلك اعترافا من الله أنه لا يقبل عملا الا من جهة آدم ، ولا يثيب ولا يعاقب الابه . وآدم واقع على كل ناطق في زمانه وكل امام في عصره ، فلا يقبل الله عملا الا من جهتهم ، ولا يسمع دعوة الا بهم ، ولا يقبل شفاعة الا منهم » [١]

فالمعز لدين الله هو آدم ، وهو « صاحب يوم السبت القائم في الارض مقام العقل في عالمه محط رحال حملة النور في سلف الدهر ، ومقصد الراحة ، وعنده تكون الاستراحة ، ذو الكلمة المصونة ، والجوهرة المكنونة أنارت الكواكب وانتثرت ، وغارت البحار يوم لا ينفع نفس ايمانها ان لم تكن آمنت من قبل » [٢]

وقد مضى ابن هانيء الاندلسي يمعن في تنزيه الله عن الصفات ، وفي الوقت نفسه يسبغها على الامام . يقول :

اذا أنت لم تعلم حقيقة فضله

فسائل به الوحي المنزل تعلم

على كل خط من أسرة وجهه

دليل لعين الناظر المتوسم

فأقسم لو لم يأخذ الناس وصفه

عن الله لم يعقل ولم يتوهم

فعلى أسرة المعز دليل الوحي ، وما كان بالامكان معرفته لو لم يأخذ الناس وصفه عن القرآن . وتشتد حماسته لامامه ، فيزعم أنه يعرف الغيب :

ومدره غيب لا معنى تجارب

ولابس حلم لا معار تحلم

غير أن الفاطميين لا يقرون ابن هانيء على هذه الدعوى ، فاننا نرى القاضي النعمان يحمل على من ينسب معرفة الغيب الى الامام . يقول : « انما أرادالدعاة الى النار الذين انتسبوا الينا بما ينحلونا اياه أنا نعلم الغيب ، وما تخفي الصدور » [١]

وقد ذهب ابن هانيء يزعم أن المعز يعلو عن كل تشبيه وتمثيل وذلك لانه مثل العقل الاول :

والوصف يمكن فيه الا أنه

لا يطلق التشبيه والتمثيل

ويقول :

جلت صفاتك أن تحد بمقول

ما يصنع المصداق والمكثار

وهي صفات فصلها القرآن الكريم تفصيلا :

فرغ الاله له بكل فضيلة

أيام آيات الكتاب تفصل .

وقد انطلق يؤكد أن المعز هو الذي يصرف الورى والافلاك :

أدار كما شاء الورى وتحيزت

على السبعة الافلاك أنمله العشر

وهو يقسم الحياة والموت بين الناس :

لك الدهر والايام تجري صروفها

بما شئت من حتف ورزق مقسم

---

(٢) الكشف ١٠٩

(١) سرائر النطقاء (مخطوط) ورقة ٩

(٢) الكرماني : أسبوع دور الستر ٦٦

(١) المجالس والمسايرات ورقة ٨٦ (مخطوط).

ثوار وعشاء

قصة بقلم : يوسف مدور

جلس حامد الاخضر قائد احدى فرق المناضلين الجزائرين في زاوية من زوايا الكهف الذي اتخذ منه مقرا لقيادته والتف حولـه المناضلون يحتضن كل منهم سلاحـه منتظرا التعليمات بلهفة ، وبـدأ حامد حديثه قائلا :

ـ ان الطقس جميل اليوم ، لذلك فان فرانسوا فورنيه صاحب مزرعة الليمون ، سيكون حتما جالسا كعادته في الحديقة يحتسي الخمر مع زوجته ، ومهمتنا الليلة اختطافهما دون ضجة :

فصاح منصور بتبرم :

ـ اني على استعداد للقيام بهذه المهمة بمفردي ، على أن تسمـح لي بقتل فرانسوا انتقامـا لطفلتي التي دهسها بسيارته وهو مخمور منذ سنتين .

فأجاب حامد :

ـ اننا لن نقتل أحدا ، لان هناك مهمة خطـيرة يتوقف نجاحها على حصولنا عليهما احياء . وسأقوم بهذه العملية انا شخصيا ويلزمني شخصان فقط ، انت يامنصور واحد والثاني مراد ، وقد رسمت الخطة بدقة ولا نحتاج من أجل تنفيذها الى أكثر من ثلاث ساعات ، فان مضت الساعات الثلاث ولم نعد فهذا يعني اننا اخفقنا وقضي علينا . عندئـذ ستستلم انت القيـادة ياطاهر ، وتنتظر التعليمات الجديدة ، وعندما ترى ان الفرصة أصبحت مناسبة فانتقم لنا ، ولكن لا يجب ان تفعل شيئا قبل ان تستلم التعليمات الجديدة التي قد لا تسمح بالقيام بأي نشاط في الوقت الحاضر ، والآن هيا بنا .

* * *

عندما وصل حامد ورفاقه قرب المزرعة ، تسلق السور وقفز الى الداخل دون ضجة ، ثم أخذ يقترب رويدا رويدا شاهرا رشيشته . كان فرانسوا فورنيه في ذلك الوقت يرشف الخمر المعتق بينما كانت زوجته كريستين تغني له بصوت خافت اغنية « لاسين » ، وعندما اصبح حامد خلفهما تماما ، قال بصوت منخفض وصارم في الوقت نفسه وبلغة فرنسية ذات لهجة باريسية :

ـ لا تلتفتا الى الخلف .. انهضا حالا .. واتجها الى باب الحديقة دون احتجاج ، والا افرغت في رأسي كل منكما عشرين رصاصة ..

اعترت الرجفـة فرانسوا ولم يستطع الوقوف ، وسقطت الكأس من يده ،فأمسكت به زوجته من ذراعه

فالامام والله قد اتحدا بمشيئة واحـدة كما قال الامام زين العابدين : « يا جندب . أنا أحيي وأميت ، وأخلق وأرزق وأبريء الاكمه والابرص ، وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم باذن ربي . وكذلـك الائمة المحقون من ولدي لان كلنا شيء واحد نظهر في كل زمان ، فاذا شاء الله شئنا ، واذا كره الله كرهنا . ولقد أعطانا الله ما هو أعلى . وأجل وأكبر من هذا كله. أعطانا الرسم الاعظم الذي لو شئنا لعرجنا به الى السماء، وأطاعتنا الشمس والقمر والنجوم والدواب » [1]

وكل هذا لان الامام هو مثل العقل الاول .

محمد حاج حسين

(١) زهر المعاني .

وساعدته على النهوض وهي تقول :

ـ تشجع ، انهم على ما يظهر لا يريدون قتلنا والا لما ترددوا ، لكن اذا رفضنا تنفيذ الاوامر فقد ينفذون وعيدهم ، هيا لا تخف ..

عندما قطع الثلاثة حوالي مئتي متر ، ظهر منصور ومراد من وراء احدى الاشجار ، فقال حامد :

ـ اني سأتقدمكما مسافة مئة متر لاكشف الطريق ، فان سمعتما طلقات نارية غيرا طريقكما وعند وصولكما مع الاسيرين بالسلامة الى مقرنا ، اعلما القيادة حالا ان فرنسوا وزوجته اصبحا بحوزتنا ، وسألحق بكما فيما بعد اذا بقيت حيا ، هيا الآن اتبعوني جميعكم .

وصل حامد ورجاله مع الاسيرين بسلام الى المقر حيث وجدوا شخصا غريبا بانتظارهم ، بادر بتهنئتهم لنجاحهم في المهمة ، ثم عرفهم على نفسه قائلا :

ـ انا نادر بن قدور ، موفد من القيادة العامة لانقل اليكم تفاصيل بقية المهمة ولاتعاون معكم على تنفيذها ، واليكم النقاط الهامة :

« ان حملة فرنسية كبيرة سوف تتجه لمنطقتكم للقيام بعمليات حربية واسعة النطاق بغية تطهير المنطقة على حد قولهم ، لانكم تسببون لهم ازعاجا كبيرا ، لذلك يتوجب علينا ابادة هذه الحملة بكاملها دون ان نسمح لها بالمقاومة الفعالة ، وهذا لا يمكن ان يتم الا اذا كمنا لها في مكان مناسب وفتحنا عليها النار فجأة اثناء سيرها ، ولكي تنجح خطتنا نجاحا تاما يتوجب علينا الحصول على المعلومات التالية :

« عدد افراد الحملة ، والطريق الذي سوف تسلكه ، والتاريخ الذي ستتحرك به من معسكراتها ، واذا امكن انواع الاسلحة التي معها وغير ذلك من المعلومات الاضافية . »

عندما سمع حامد هذا الكلام قال :

ـ ان هذا الطلب عظيم جدا ، « وحق سيدي عبد القادر » لو كان عدد أفراد هذه الحملة عشرة آلاف جندي وتمكنت من الحصول على نصف هذه المعلومات لامكنني ابادتها مع عشرين مناضلا فقط ..

فاضاف نادر وهو يحاول ان يبتسم :

ـ وهذا ما يجب ان يحصل ، لانه قد بلغ القيادة ان عدد افراد الحملة هو حوالي عشرة آلاف ، لكننا نريد ان نتأكد من ذلك ، وان كنت واثقا من شجاعتك وشجاعة رجالك تماما الا اني افضل في حال ثبوت ان عدد الحملة عشرة آلاف ، ان نحشد لهم عددا مناسبا لكي نضمن النصر ، لان المجازفة في مثل هذه الحالات غير محمودة ..

فاردف حامد :

ـ لكن لم تخبرنا عن كيفية الحصول على هذه المعلومات ؟

فقال نادر :

ـ ان الشخص الذي يستطيع ان يفعل ذلك موجود بيننا .

ثم التفت الى فرانسوا فورنييه وقال له بلهجة أهل مرسيليا :

ـ مسيو فرانسوا .. عندي خبر سار جدا بالنسبة لك ، وهو ان القيادة أمرت باطلاق سراحك ، ولن يمسك أحد بأذى ، ولكن مقابل ذلك يجب ان تمدنا ببعض المعلومات عن الحملة التي ستأتي لتطهير هذه المنطقة ، واذا نجحت بهذه المهمة سوف تعود الى بلادك سالما معافى ، اما اذا اخفقت وفررت ولم تعد الينا ، فقد تنجو موقتا من بين أيدينا ، لكن نفس هذه الفرصة لن تسنح لمدام فورنييه ، لانها ستبقى لدينا كرهينة الى حين عودتك . ونحن متأكدون انك ستعود ، لانك لن تستطيع العيش بدونها ، اذ انى قد سمعت عن اسطورة حبكما التي وان كان قد مضى عليها حتى الآن عدة سنوات ما زالت مرسيليا تذكر حوادثها وبصورة خاصة انتحار زوج كريستين الاول يوم علم انها فرت معك .. فما رأيك يامسيو فورنييه ؟ هل انت موافق على التعاون معنا ؟

رمق فرانسوا زوجته محاولا ان يقرأ رأيها في عينيها ، فرآهما تضرعان اليه وكأنهما تقولان :

– افعل كل ما يطلبونه منك ، لكن لا تتركني أموت ..

لاحظ نادر هذه المحاورة الصامتة التي تدور بين الزوجين العاشقين ، ولكي يذكي نارها ، اضاف :

– ثم يجب ان تعلم يامسيو فورنييه انك اذا عدت الينا بالمعلومات التي نريدها ، فلن نطلق سراحكما فحسب بل سوف نعطيكما مليون فرنك كهدية لتبدأ حياتكما من جديد ، ولكن ليس هنا بل في مرسيليا او في أي بلد آخر ، اما هنا فلا ..

بعد ان فكر فرانسوا فورنييه برهة قال لنادر :

– اني اثق بوعدك كما اثق انك لن تمس زوجتي باذى ، لذلك سوف أحاول الحصول على كل ما استطيع من معلومات .

فقال نادر :

– لا يجب ان تحاول فقط ، انها من الضروري ان تحصل على ما نريد ، ونحن لم نكلفك بهذه المهمة الا لاننا متأكدون من قدرتك على النجاح ، والسبب الذي يظهر انك لم تعرفه بعد هو ان شقيقك الكوماندان روبير فورنييه قد وصل منذ عشرة ايام الى الجزائر وباشر عمله كمعاون لرئيس المكتب الثالث ، وكما تعلم ان هذا المكتب هو الذي يضع جميع الخطط الحربية . هل فهمت الآن لماذا اخترناك ؟

عند سماع هذا الكلام ظهر الارتياح على وجه فرانسوا فورنييه وقال :

– اذن سوف تحصل على كل ما تريده من معلومات خلال ثمانية واربعين ساعة فقط ، لان لا طاقة لي على احتمال فراق كريستين أكثر من ذلك ..

يا قلبي

شعر : أحمد علي حسن

انا ما شكوت من الهوى حرقا — في جانحي ، لولاك يا قلبي
يا موطن الاحساس في كبدي — يا كتلة حمراء في جنبي
ايقظت حب الورد في خلدي — وزرعت كل الشوك في دربي
واريتني ان الهوى ترفا — فبحثت فيه عن الذي يصبي
هل انت ذو حس انوء به — أم انت بعض مغانم الحب
يا من فرضت علي متجهي — وغفرت في تبريره .. ذنبي
وملكت الهامي وعاطفتي — ومنعتني ان انتقي صحبي
وتركتني والحس يقذفني — يا خافقي ، في المهمه الصعب
لك في حنايا الصدر سيطرة — رعناء في الايجاب والسلب
الحب انت تحس ثورته — في كل ما يغري وما يسبي

* * * *

ماذا وراء الهدب تعشقه — لتذوب في ثغر وفي هدب
ماذا وراء لمى تسلسله — شفتان ظامئتان للشرب
وبم الجنون بكل ناعمة — فتظل من سرب الى سرب

* * * *

انا لم اقل لولاك ياقلبي — نحو الحمى وحصانه عج بي
انا ما عرفت صبا يهلهلني — بقريض مشبوب الهوى صب
ناجيت فيك هواي وانطلقت — نفسي ، وسار مع المنى ركبي
لولا العيون وما يمتعها — فلمن خلقت الحسن .. يا ربي ؟
وحلفت ، لولا خافق قلق — هذا الهوى لم يستطع جذبي
لا تبحثوا غير القلوب به — الفعل كل الفعل للقلب

* * * *

احمد علي حسن

سمراء

شعر : أنور إمام

غادتي السمراء يادفء الرغاب ... يا شذا العطر البليل المستطاب
بسمة الصبح وهل في زهوه ... للروابي غير آمال رحاب
طلة البدر وشلال السنا ... مثل ليل زانه لمع الشهاب
زحزحي سجف الدياجي ينجلي ... مفرق كالنور من بين الضباب
وابسمي قد يبسم الخلد لنا ... مثلما نبغي ويصفو لي الشراب
واسحبي العطر على حقلي يفض ... منك حقلي بالازاهير الرطاب
وردتي ياوردتي منك اكتست ... عطرها الفواح واللون العجاب

* * * *

اترى الرجراج ما اقلقه ... يشتكي ما يشتكي وهج الشباب
اتركيه ترتوي من طيبه ... نسمة الفجر فتخضل الهضاب
قبل الورد لماه فانتشى ... وغدا برعومه منه اكتساب
معبد للحب ما اقدسه ... لملم النور وصفاه انسكاب
طاف فيه قبل طرفي خافقي ... يعبد الحسن ولا يرجو المتاب

* * * *

يا لعينيك اذا ما رنتا ... صفق القلب اليها وانساب
الف دنيا فيهما خلف الرؤى ... خضل بحر من النور عباب
ضعت فيه لا ابالي من انا ... لا متى جئت ولا كيف الاياب
زورقي مجدافه من اضلعي ... وشراعي نسج أحلام عذاب

* * * *

انا يا سمراء عذري الهوى ... منك وحيي احتسيه لا الرضاب
وسمو الوجد عندي انني ... اعشق الروح واصفيها الرغاب
وارى في الحسن الهامي الذي ... ما هوى يوما الى مثوى التراب

* * * *

هذه الدنيا كحبي طلسم ... سرت فيها لست ادري ما الصواب
بحرها الطامي الذي يقذفنا ... فاذا نحن على الشط يباب

* * * *

انما قلبي اذا ساءلته ... ينشد الصحو ولو فوق السحاب
لا يبالي بعد هذا ما اذا ... كان ماء ما اتاه ام سراب
كل احلامي بلقيا او جفا ... مثل دنيا ملئها شهد وصاب

بانياس ـ انور امام



برنارد شو

بقلم : محمد سعيد الكيلاني

قال شو في احدى المناسبات قولا محببا الى النفس، ينقصه التواضع : (انني اكثر رجال لندن شذوذا) ، وكان يقرر حقيقة بسيطة في اسلوب قريب من الحكاية. ولقد سيطرت شخصيته الجريئة والغنية واللوذعية على عالم الآداب خلال السنوات الخمسين الماضية . فقد اكتسب – كروائي – شهرة عالمية واسعة . ولم يكتب عن روائي مثلما كتب عنه . ان آراء شو التي كان يقولها في أحد الايام تصبح أنباء العالم في اليوم التالي . ان حياته وفنه مرآة لحياة عصره . لانه كان دائما على تماس متصل بجميع مظاهر عصره الاجتماعية والسياسية والفنية .

ولد في (دبلن) ٢٦ تموز ١٨٥٦ ، وهو الطفل الثالث لتاجر قمح بالجملة يدعى : جورج كار شو ، كان يحب الشراب ، وكانت زوجته اليزابث تحب الموسيقى . وحينما كان طفلا أمضى بعض الوقت تحت رعاية مربيه . وفيما بعد ، أي في سن العاشرة ، أرسل الى مدرسة (ويسلن) حيث أبدى كرها عنيفا للرياضيات واللاتينية . ولكنه كان يجد لذة في أن يقص على زملائه في المدرسة روايات غرامية . وبعد أن اكتسب بعض المعرفة أثناء قراءته في وقت فراغه ، ترك المدرسة في سن



الخامسة عشرة ليصبح كاتبا صغيرا في مكتب للمصالح العقارية . حيث كان يسلي الكتاب بمختاراته من قطع الاوبرا . وما كاد يصبح ذا قيمة حقيقية بالنسبة لمستخدميه، حتى قرر ان يذهب الى لندن حيث التقى بأمه واخته ١٨٧٦ . وفشلت جهوده في بضع سنين في كسب معيشته.

وجرب حظه في الرواية ، وكتب خمس روايات لم تستحق النشر آنذاك ، وما كان ليصدمه الفشل . فقد تعلم كيف يتغلب على خجله الذي لازمه في طفولته،

وكيف يصبح خطيبا عاما ، ثم أصبح اجتماعيا (فابيا) • واتصل اتصالا وثيقا بالشخصيات الهامة البارزة أمثال : (وليم مدريس) (سيدني ويب) (ميدمن) • ان اتصاله بأفكار وخطط الاجتماعيين القدماء ، غير الشاب الحالم الذي عبر القناة الارلندية ، غيره الى نبي مناضل في سبيل عالم أفضل • لقد كانت مثاليته الثقافية هي التي أمدته بالخبز والزبدة والجوز • وفي عام ١٨٨٥ ، وبالنظر لنقص شامل في نقوده ، اضطر ان يتوظف كناقد فني لمجلة العالم • وبعد سنوات ثلاث أصبح ناقدا موسيقيا لجريدة (ستار) •

وفي ١٨٩٤ حصل على أهم وظيفة له في الصحافة الادبية • فأصبح ناقدا مسرحيا لمجلة (مراجعات السبت)• في هذه الصحيفة قاد حملته لمناصرة (ابسن) الروائي العظيم الزوجي • وهنا ظهرت أيضا بعض تهجماته الشخصية على شكسبير • ولم تكتب هذه الكتابات بشيء من خفة الروح •• غير أن سببها الرئيسي ان شو كان منهمكا في بناء عالم جديد ، وتحرير بناته من القيود القديمة •

لم يكن لديه وقت للعرف والتقاليد ، الامرين اللذين احتقرهما • وهذا الموقف الثوري – بصرف النظر عن جرأته الادبية في التعبير عنه – لازمه خلال حياته • وفي جهده لتأليف المسرحية الجديدة كتب روايته الاولى (بيوت الارامل) التي الفت في كانون الاول ١٨٩٢ في ليلتين ، وكان قبولها مختلفا بالنسبة الى الناس • وفي السنة التالية تبعتها أيضا الروايات الاخرى (المغازلة) ١٨٩٣ وفي السنوات المقبلة حتى ١٨٩٨ تبعتها (روايات سارة وغير سارة) •

وفي هذا العام هجر مهنته ، وكان قد اكتفى من النقد المسرحي بعد ان اكتسب سمعة (انه أبرز والمع صحافي بلندن) • ان كسب شهرة كهذه في زمن الصحافيين الكبار لم يكن كسبا صغيرا • غير أن شو لم يقنع • وفي ١٨٩٨ طفق يقنع العالم بأنه أعظم روائيي عصره • واستغرق هذا العمل ست سنوات • ان نشر بعض رواياته أمثال (السلاح والرجل) (تابع الشيطان) (كانديدا) (انت لا تستطيع أن تخبر أحدا) ، هذا النشر في المناسبات اعطى رواياته نجاحا جزئيا • ولكن هذه الروايات استقبلت بحماس في الولايات المتحدة بين عام ١٨٩٩ – ١٩٠٥ • وفي هذه الفترة ترجم عدد منها الى الالمانية ، ولاقى قبولا حسنا • ومنذ ١٩٠٤ كانت سمعته كمسرحي قد توطدت في لندن بالحفلات الشهيرة لرواياته في مسرح البلاط • وبظهور : (الرجل والرجل المتفوق) (الجزيرة الاخرى لجون بول) (بربارة العظيمة) (معضلة طبيب) توطدت شهرة شو •

وببدء حرب السنوات الاربع – كما دعاها هو – تناقصت مؤلفاته كما تناقصت شعبيته الى حد ما • ليس من السهل ان تقول الحق أيام الحرب • وتعليقات شو الجزئية على السياسة البريطانية والسير كري ، ومحادثات اللوز يتانيا ، كل هذا جعله من الاشخاص القليلي الشعبية في انكلترا ١٩١٤ • وفي ١٩١٩ كان مستعدا للتقدم بنصائحه الجريئة غير المألوفة الى أي سياسي أهتم بأن يستمع له ، كما أعلن نفسه حاميا لعصبة الامم • وقد استمر في عمله ككاتب روائي ينشر رواية المجموعة (المكسورة القلب) (العودة الى ماتزولا) ١٩٢١ (القديس جون) ١٩٢٤ • وقد لقيت الاخيرة نجاحا هائلا • وهي تعتبر من عدة جهات من أحسن رواياته ان لم تكن من أكثر الروايات تمثيلا لشخصه • ثم تبع ذلك ١٩٢٨ نشر رواية (مرشد المرأة الذكية الى الرأسمالية والاشتراكية) • وهي عرض موفق للحياة السياسية والاجتماعية لهذا العصر ، ودفاع عن المساواة في الدخل •

ونشرت (عربة التفاح) ١٩٢٩ وظهرت (حقا انه جيد) ١٩٣١ • وتبعتها بعد سنوات (جنيفا) ، و (الايام المذهبة للملك الصالح شارل) •

وفي خريف ١٩٤٤ ظهرت معالجة نثرية ماهرة

للحضارة الحديثة في كتابه (الدليل السياسي لكل شخص) . وهو كتاب لا ينقصه شيء من جهة وضوح العرض وقوة التعبير . ان شخصية شو النابضة بالحركة، والتي تقفز في اللحظات غير المناسبة سائلة أجرأ الاسئلة، ومصرة بنفس الجرأة على اعطاء أجوبة محسوسة ، هذه الشخصية كان لها الى حد ما أثر في تحويل انتباه الناس من عظمته ككاتب الى عظمته كروائي .

ا نشهرة شو المثيرة ، كشخصيته الثورية ، ستبقى مدينة الى الابد ، لعبقريته التي لا يشك فيها ككاتب قصصي ، ولبراعته في استعمال اللغة . وقبل ان تثير روايات شو العاصفة في نفوس جمهور المسرح ، لم يكن هناك ما يستحق الاهتمام الجدي ، الا احياء الروايات القديمة . وقد كانت تبذل جهود معتبرة لتقديم روايات (ابسن) الى الجمهور الذي كان تعبا من المهازل غير الناجحة ، ومن الافراط السقيم في العاطفية . ولكن استجابة الجمهور كان ينقصها الحرارة . وقد عمل شو على ألا يدهش الجمهور بالافراط في استعمال تفنن جديد ، بل في تقديم أفكار قوية نقية . وقد قال في مقدمة (المسرحيات الثلاث للبيوريتان) :

(لن يوجد فن مسرحي جديد بغيرفلسفةجديدة). ورواياته الاولى هي فوق كل شيء روايات فكرية يأخذ منها الصراع بين النظريات مكان قعقعة السيوف . وقال في مناسبة أخرى :

(يجب ان ينتقل المسرح من الفن الرومانتي العاطفي ، الى الفن البناء) ، ورفض أن يكون له أي شأن لان هدفه لم يكن الهرب من الحياة . بل كان يهدف الى جعل الحياة أكثر واقعية . انه لا يعبر عن نظام فلسفي متين البناء ، بقدر اهتمامه بالتحليل الدقيق للتقاليد والمراءاة في الحياة الاجتماعيةالوجيزة . – خاصة في رواياته الاولى – . ورواياته من نوع الملهاة . واسلوبه في العرض غير مباشر . فهو يتجنب التهجم الهجائي المباشر ، ويفضل السخرية في التصريح حيث يكون التصريح غير متوقع . فهو يقلب العالم الاجتماعي من كل الجهات . وهو بهذا يفجر مهمته الهدامة بقوة مضاعفة .

وهذا الاسلوب مستعمل في رواياته (بيوت الارامل) . حيث يظهر (ترانش) المثالي رد فعل قوي بالنسبة لمصدر من خطيته الذي أخذ من بيوت الفقراء . وأما نقود ترانش فيكشف عن أنها أخذت من مصدر سيء كالسابق . وفي النهاية يبدو المثالي السابق واصفا حظه ليحصل على نقود أكثر بنفس الطرق السيئة .

وهناك تصريح غير مباشر توحيه رواية (مهنة السيدة ورن) ، حيث يعالج مشكلة البغاء . ونرى الاسلوب نفسه الذي يتضمن الكشف عن مظاهر عديدة من الحياة ، يعتبر بديهيا في معظم رواياته .

والنتيجة الرئيسية تكمن في الحقيقة التي تنص على أنه : (مع ان الافكار والتثقيف لهما الاهمية الاولى ، ولكن التعبير يكون بالشخصيات الني لها حياة مستقلة مأخوذة من حياة الناس . فهو في رواية (السلاح والرجل) يكشف عن فساد الافكار الرومانتيه عن الحرب . وفي (كانديدا) يكشف عن فسادهافي الحب. وفي روايات تبعت ذلك ، يكشف عن فسادها في انكلترا وارلندا ومهنة الطب وكيلوباترا ونابليون والقديس جون سلسلة أخرى من الموضوعات والشخصيات التي يوجه اليها الضوء الواضح الهادىء في مسرحياته العقلية . وقد انتقد عمل الهجاء على أساس انه يقوم على الهدم . واستجاب شو لمهمته بنشاط . ولم يكن هناك أقوى من الفصل في قيود كيلوباترا من وجهة نظر المسرح القوي . في منظر قيصر وتيودوتس المؤرخان يراقبان احتراق مكتبة الاسكندرية العظيمة : (ان الذي يحترق هناك هو ذاكرة الانسانية) . يقول قيصر : (انها لذكرى مخزية، دعها تحترق) . قيصر : (نعم وسأبني المستقبل على أنقاضه) .

وهذه هي فكرة شو . وقد عبر عنهابفلسفةواضحة

لاول مرة في روايته (الرجل والرجل المتفوق) • وفي هذه الرواية تظهر لنا فكرة ان أمل الرجل في خلاصه يكمن في اتباع الدوافع العميقة لما سماه : قوة الحياة تجاه المعرفة النفسية العظيمة ، والسيطرة العظيمة على الظروف •

وفي كلمات (دون جوان) في الرواية : (انني اخبرك انني حين أتصور شيئا أحسن من نفسي ، لا أستطيع ان أهدأ ، دون ان اناضل ، لابرازه شيئا الى الوجود أو شق الطريق له • وهذا هو قانون حياتي • وهذا ما يعتلج في صدري من طموح الحياة الى تنظيم ارفع ، والى وعي نفسي أقوى وأعمق واشمل ، والى فهم مبين للنفس) •

ان الاعتقاد بنوع من الطموح المقدس يدفعنا الى الكمال • هذا الكمال هو اعتقاد فلسفي في معظم روايات شو المتأخرة • فهو يوحي هذا الاعتقاد في الروايات (بربارة الكبيرة) (الكشف عن بلانكو) (الرجل والرجل المتفوق) (القديس جون) (العودة الى مثيولا) • وفي مقدمة الرواية الاخيرة يدعو هذا الطموح : الشهوة التطورية • قال : (ان الفلسفة تسمو على أجنحة الملائكة ، ولكن بشعر لم يسمح لها بان تتغلب على عظمته المتصاعدة كروائي) • والى هذا الوجه من وجوه عبقريته ، يجب أن يعود من يريد أن يراه على حقيقته • ان الحقيقة توجد في اللحظات المسرحية الحية ، كما توجد في محاورة قيصر وتيودوتس التي ذكرت قبل • وتوجد أيضا في افتتاحياته الاخاذة : (لا بيض لا بيض) • وآلاف الصيحات تقول : ماذا تعني بقولك أيها الرجل : لا بيض ؟

كما نجد الحقيقة في قدرته التي لا تكل عن تهيئة محاورات ذكية ولحظات سرور موحية • ويبدو هذا في (العودة الى ماثيولا) ، وفي معالجته الاكيدة للمواضيع المحلية ، ونجده أيضا في معالجته القوية للتاريخ •

اننا نرى في ذلك كله الكاتب العظيم حقا للروايات ، وأنه لا يلعب دور الحمقى ، ولا يهدف الى انفعالات رخيصة • ولا يتبنى ـ حين يريد ذلك ـ موقفا متناقضا • هذه جميعها علامات جيدة لانها تخدم في تأكيده الصفات الانسانية الرئيسية ، للذي يبدو أحيانا متفوقا جدا في حيويته الشخصية وقوته العقلية • ونحن لا نجد في اتجاه الحاضر أشياء بارزة يحتمل أن يكون لها تأثير على المسرح في المستقبل •

ان استعماله المناظر في الحوار ، والتي نجد اشدها تأثيرا في المنظر الرابع المشهور في رواية : (القديس جون) • هذا الاستعمال مرتكز على نظريته في المسرح ، باعتباره أداة للتثقيف • ولكن (استعمال الحوار) لا ينتظر ان يصبح اكثر من احدى خصائص شو • فقد (كان يعمل بعيدا عن الجانب التاريخي وعن العزلة) • وعمل التقليد القديم يقسم الرواية الى فصول ومناظر بقليل من الاحترام • وتحتوي رواية (الانسان والانسان المتفوق) فصلا كاملا ، له علاقة بسيطة ببقية الرواية • ولعدم قدرته على الانغماس في تلك البساطة التي ترى الحياة مأساة « او ملهاة » ، خلط بينهما بغير خجل في بعض أحسن رواياته • واعترف هو نفسه بقوله : (ان في داخلي عنصري الاسى والتهريج • وان التهريج ليستيقظ بنفسي في أكثر الحالات رعبا) • وكنتيجة لذلك نجد مزيجا من الملهاة والمأساة في عمل شو • مع أظرف النتائج في مثل رواياته (القديس جون) (تابع الشيطان) •

ان حسن اللهو والضحك ، كان يظفر بأحسن ما عنده • ودفعه الى طرح الفكاهات في أحسن الاجواء الموسيقية • وفي أردأ ما يتوقع من الاذواق • لقد اعتاد شو ان يكتب كتابة غير تقليدية • كان يحطم القوانين ويهمل التقاليد ، كلما احوجه الى ذلك ضغط الحملة الفكرية والعاطفية ، التي قادها في سبيل عالم أفضل • ولقد قال : (انا اكتب الروايات لانني احبها • ولانني لا أستطيع أن أتذكر اية فترة في حياتي حينما تكون لدي القدرة على خلق الناس والمناظر • وأنا لست روائيا

الاستاذ علم

قصة بقلم : عدنان الداعوق

كانت نسمات الصبح الباردة تلفح وجهه وهو يسير على رصيف الشارع ووجهته غير معلومة .. ان جميع الناس وأصحاب المحلات التجارية .. والمارة ألفوا الاستاذ « علم » وألفوا مظهره المضحك وهو يسير صباحا ، منطلقا من شارع « الحميدية » مارا بالساحة العامة ، عابرا شارع « الدبلان » منتهيا عند آخر البساتين .. دون أن يعرف أحد اين ينتهي به المطاف صباح كل يـوم .

والاستاذ « علم » لا يكاد يشاهد الا صباحا في موعد يحرص عليه منذ زمن بعيد .. الثامنة ، في نفس الوقت الذي يخرج فيه الموظفون والطلاب والباعة ، وأصحاب المحلات . كل الى مسعاه .

وكان الاستاذ « علم » شابا في نحو الخامسة والعشرين من عمره .. أسمر الوجه ، تقاطيع قسماته تحمل صورة حلوة توضحها عيناه السوداوان وحاجباه الغزيران ، ولكن صورته الشابه الحلوة لا تبقى يوما على ما هي عليه..فسرعان ما يضيق الاستاذ « علم » ذرعا بخلقته فيسعى الى تغيير معالم وجهه بشتى الاشكال ومختلف الاساليب .

وقد ألف رواد الشارع الذي ينطلق منه الاستاذ « علم » مظاهره المختلفة .. فيوما يطلق لحية سوداء غزيرة ، بلا تشذيب ولا تهذيب ، ومرة يتعمم بعمامة

في الدرجة الاولى . ان الاشياء تتوفر لي كمناظر اولا ، فيها حركة وحوار ، كلحظات تتطور بفضل حيويتها الكامنة) .

لقد ولد وهو كاتب روايات . ان مقدماته الشهيرة للروايات ، هي من أعظم الاشياء الساحرة في انتاجه . وهي ــ بصورة رئيسية ــ كلام عقلي عن الافكار العديدة التي كان يـود أن يعرضها في رواياته . وكان يهاجم ببلاغة متفوقة ، الديموقراطية وشكسبير واميركا وآلافا من الافكار الاخرى الكبيرة الغامضة . والتي يحب بعض الناس ان يحيطوها بنوع من القداسة .

وكان ينغمس أحيانا في تأكيدات ومبالغات ، ليصل الى هدفه ، وليوفر تأثيرا معينا ويفعل هذا أحيانا لانه لا يستطيع ان يتخلص من قبعة المهرج واجراسه .

كان ينغمس في التأكيدات والمبالغات ، وهذه الاشياء الماضية ، مضافة الى اشتراكيته المتزمتة ، وبغضه الانتباه الى تشويه الحياة المفتعل ، وتمسكه الجريء المخلص بوجهة النظر العقلية ، كل هذه الاشياء : سببت له نقدا لاذعا بيد أنه لم ينسحب أبدا . اذ كان يستمتع بالمناوشات في المعارك الكلامية التي كان فيها قائدا ممتازا . واذا كان هدف الفن الحقيقي ، التشجيع والدفع الى حياة كاملة ، فاننا نستطيع ان نتكلم بثقة عن ف ن شو .

كانت صرخته الدائمة : الحياة اولا وزيادة . ولقد كان فنه كبوق قوي ينفخ في انكلترا او في طريقة الحياة الانكليزية .

ولقد أخذ معه هذا البوق ، كثيرا من الاشياء الميتة التي تركها الماضي لمضايقتنا .

انه من أعاظم الشعراء المرحين ، وهوأهل لمجاراة شكسبير وموليير .

سلمية — محمد سعيد الكيلاني

بيضاء تظهر وقاره ، وكأنه شيخ أمضى العمر كلـه في في المساجد وأماكن العبادة والتقـوى •• ومرات كان يبدو « متفرنجا » الى أبعد الحدود ، فيلبس بنطلوناأزرق ضيقا جدا ، ويرمي فوقه قميصا بألوان قوس قزح •• ويدع أطراف القميص في اهمال فوق « البنطلون » بلا مبالاة •

ومرات كان يبدو في صورة عادية جدا ، وأخرى في صور مضحكة للغاية ، فيحلق ذقنه وشاربه ، ويدع شعره فوق رأسه كالتاج يظل ينمو ويعلو حتى يصير كالقبة فوق رأسه الصغير •

وبالاجمال كان غريب الاطوار ••

وحين نقلت الى « حمص » لم أكن أعرف أحدا بالبلدة الجميلة الصغيرة ، فكنت أمضي أوقاتي ـ بعـد العمل ـ في مقهى هادىء صغير يقوم عند آخر شارع « الدبلان » ، وهو أقرب الى المنتزه منه الى المقهى •• فانه يقوم على حديقة جميلة تظللها الاشجار ، وتسكنها العصافير وتؤمها جماعة صغيرة من فئة أهل الفن والمذاهب الانطوائية القليلة من الشباب •

وكنت أجد غاية المتعة وأنا في مقهى « الدبلان » أسترجع في خاطري ذكراي الفتية الشابة التي تركتها قبل أن تهرم وتشيخ في « حلب » ومخلفا ورائي صداقات مختلفة وأحبة وأعزاء •

وألتفت حولي فأجد الجو هادئا جميلا لا يعكره صوت او تداخله نغمة شاذة •• وهـذا يساعدني على الذكرى واسترجاع الايام الماضية •

أما في أيـام العطلـة الاسبوعيـة ، فكنت أبكر في الحضور لهذا المقهى الذي كانت تزيـده جمالا أنسام الربيع ، وزقزقات العصافير ، وهدوؤه العجيب الحبيب •

وكنت ألمح ـ وأنا في وحدتي وذكـراي معي ـ شابا عجيبا ، أسمر الوجه ، مجعد الشعر •• مختلف الهندام من يوم لآخر •• ينطلق من أمام المقهى ويسير نحو آخر الشارع المؤدي الى البساتين التي يرويها نهر العاصي بعطف ورقة وحب منذ الازل •

وكنت أعجب من مشيـة الاستـاذ « علم » أيمـا اعجاب •• كان لا يتطلع الى أحد مطلقا ، يمشي وهو مطرق برأسه الى الارض ويداه تنتظمان في حركة شبه عسكرية •• قدمه ثابتة ، وقامته مشدودة يزيدها احكاما زيه العجيب ، حينما يكون رصينا •

حسبته ـ بادىء الامر ـ معتوها به مس من خبل ، وموجة من جنون ، يمر يوما وينقطع أياما ••

ولكنني فوجئت اذ رأيته أكثر من مرة وهو يمر في نفس الوقت والميعاد ، حتى ان خادم المقهى نفسه حينما رأى الاستاذ « علم » يمر أمامه ، ينظر الى ساعته ويعدل فيها بضع دقائق وثوان •

وحين سألته عن السبب ، قال بلهجة عادية جدا :

ـ في الثامنة والنصف تماما من كل صباح يمر الاستاذ « علم » من هنا •• وهذا موعد لا يتغير بالنسبة له •• وقد تخطيء ساعتي يوما فأعدلها حين أراه •

كان خـادم المقهى يكلمني وكأنني على علم أنـا الآخر بالاستاذ « علم » •

أما وأنا أجهل الاستاذ « علم » تماما •• فما كان مني الا أن سألته :

ـ وهل هو يمر كل يوم من هنا •• وفي نفس الميعاد •• ؟

أجابني خادم المقهى ، وهو يعجب مني كيف لا أعرف الاستاذ « علم » كما يعرفه الآخرون من أهل المدينة ، :

ـ أجل ، انه هكذا منذ سنوات بعيدة •• كيف لا تعرفـه ؟ •

أجبته :

ـ كان علي أن أحضر لحمص منذ سنوات بعيدة لاتعرف على الاستاذ علم ••!

وفطن الخادم الشاب الى انني غريب عن البلدة • وضحك ، وكأنه يعتذر عن جهلي بهذا المخلوق العجيب •

وسألت من جديد :

ـ وهل اسمه الاستاذ علم ، أم انكم أنتم الذين أطلقتم عليه هذا الاسم ..؟

أجابني خادم المقهى ببساطة وصراحة حلوة :

ـ ان اسمه « علم الدين » وبالفعل هو أستاذ ، وقد كان في يوم من الايام شيخ جامع في « باب السباع » وكان يؤذن هناك .. وله صوت جميل جدا ما زال على جماله تلان .. وزيادة على ذلك فالاستاذ علم ، عالم بكل فن وأدب .. فهو يفهم الموسيقا والغناء والادب والشعر والفلسفة . وكل شيء ..

سألت محدثي من جديد ، وقد طلبت اليه أن يجلس الى جانبي ، ويحدثني عنه أكثر فأكثر ..

ففعل الشاب ، وجلس قبالتي ، وراح يقول لي :

ـ « أنا شخصيا لا أعرف عن الاستاذ علم الشيء الكثير .. وكل ما اعرفه عنه انه كان يدرس يوما في مدرسة الشريعة ، وكان يلبس يومها القفطان والعمامة.. وكان يؤذن في باب السباع ، ويلف حوله الكثير من أهل الحارة ، ويقص عليهم طرفا من أحاديث النبوة وأفانين الشعر والادب .

ولم ينته الامر بالاستاذ علم عند هذا الحد .. فما لبث أن طلق مدرسة الشريعة ، ورمى بالعمامة والقفطان جانبا .. وأخذ يرتدي الثياب الافرنجية الحديثة ، ويتفنن بها حتى لتكاد تكون مضحكة في أغلب الاحيان .

ولكنه يعود مرة بعد مرة فيحن الى الماضي، ويرتدي القفطان والعمامة ، ويطلق لحيته السوداء الكثة أياما .. ولكنه يعدل عن كل ما يأتي به بعد أيام .. ثم يعود فيرتدي أحسن الثياب وأبهجها .

والاستاذ علم .. علم في المدينة .. الجميع يعرفونه ، وهم يألفون مظاهره المختلفة مهما تعددت وتنوعت .. لانه فنان كما يقول هو بعض المرات .. »

* * *

سألت خادم المقهى « عمر » بعد أيام :

ـ أين يسكن الاستاذ علم ، والى اين ينتهي كل صباح من هذا الطريق .؟

أجابني « عمر » :

ـ انه يسكن في الحميدية .. وينام في أغلب الاحيان في جامع باب السباع ، وحين يمر من هنا .. ينتهي به الامر نحو بساتين « الجديدة » وهناك يستريح عند حافة نهر العاصي ، ويظل جالسا حتى يشاء الله ، ويعود بعد ذلك ، ولكن لا أحد يراه في طريق عودته .

وعجبت كثيرا من شخصية الاستاذ « علم » المتناقضة .. فأنا لم أعرف انسانا استطاع أن يجمع بين الفلسفة والشعر والموسيقا والعمامة والبنطلون الازرق والقمصان الملونة الزاهية .. وبدأت نفسي تحدثني عنه مختلف الاحاديث .. وصار الاستاذ « علم » يحتل في تفكيري جزءا كبيرا . وبدأت بالفعل أشغل به ..

وفي يوم من أيام الجمعة ، كنت أجلس في المقهى، وأتطلع الى ساعتي .. فما ان أشار العقربان الى الثامنة والنصف حتى لمحت الاستاذ « علم » يهل من أول الشارع .. فهيأت نفسي للقائه ومحادثته ، واستدعيت « عمر » وسألته :

ـ هل استطيع أن أحدث الاستاذ علم .. وهل يقبل هو محادثتي أو الجلوس معي هنا .. ؟ .

قال « عمر » :

ـ بالطبع يقبل .. انه متواضع جدا ياسيدي .

ولم تقنعني لهجة «عمر» البسيطة ، وبدأت أفكاري وخواطري تعمل بسرعة مذهلة .. كيف لي أن أطمئن اليه .. كيف أعلم أنه عاقل يستطيع أن يفهم ما يقال له ولا يثور أو يضطرب او ينفعل .. ثم ألا يدل مظهره العجيب على غرابة أفكاره ..؟!

وجالت بذهني ، في تلك اللحظات القليلة ، مئات الخواطر .. ولكنني أقصيتها كلها عني في لمح البرق حينما صار الاستاذ « علم » بالقرب مني .

ونهضت من مقعدي وتقدمت منه .. وقلت له والكلمات ترتعش على شفتي :

ـ صباح الخير يا استاذ علم ..

فنظر الي .. وأمعن النظر بي قبل أن يجيب ، وخيل الي أنه سيتفوه بكلمات لا تحمد عقباها .. ولكنني فوجئت تماما اذ سمعته يرد علي بلهجة حلوة ناعمة :

ـ صباح الخير ياسيدي . كيف حالك .؟!

فمددت يدي لمصافحته وقد اطمأنت نفسي الى عبارته .. فمد يده وصافحني بمنتهى الاحترام .. ودعوته الى الجلوس معي قليلا لاتشرف بتقديم فنجان من القهوة له .

ولم يبد عليه أي امتعاض من دعوتي له .. فتقدمني وجلس الى كرسي بجانبي ، والتفت الي ، وقال بلهجته العذبة الصافية :

ـ أهلا وسهلا .. لا أظن انني قابلتك ياسيدي من قبل .!

قلت له ، وقد زالت من نفسي جميع مخاوفي وتصوراتي تجاهه :

ـ وأنا كذلك لم يسبق لي أن تعرفت عليك .. لقد قدمت المدينة حديثا .. ولم أشأ أن أظل أجهل فيها استاذا كبيرا .. وقد سعيت اليوم الى التشرف بمعرفتك .

كنت أخشى أن يظن أنني أسخر منه ، كما يسخر منه الآخرون في أحاديثهم معه أحيانا .. ولكنه ابتسم عن أسنان صفراء متآكلة وقال :

ـ أخجلتني ياسيدي .. في الحقيقة أنا أشكرك ، وأشكر لك لطفك وانسانيتك وذوقك .

وطلب الاستاذ « علم » لنفسه قدحا من الشاي من « عمر » وجلس يحدثني طويلا .. قال لي الشيء الكثير عن « عباس ابن فرناس » ، ويعرف عن « نيوته » كما يعرف عن « ابن زيدون » .

وقد استغل جهلي له ولمعارفه الواسعة ، فراح يحدثني باسهاب .. حتى شعرت بالملل .. ولكن الى جانب هذا الشعور رحت أحدث نفسي :

لماذا يعيش شاب مثل الاستاذ « علم » هذه العيشة الشاذة ..؟

لماذا يبدو « افرنجيا » بلباسه وتفكيره وعقليته .. ثم يلبس العمامة ويتفهم أصول الدين والفقهوالاسلام.؟ ان من المؤكد أن لا أحد من أهل المدينة ، ومن معارفه يقدره لعلومه ومعارفه ـ وهو يعرف الكثير ـ ولكنهم يسخرون منه لازيائه الغريبة ، ولتفننه في سحنته وفي شكله .. فيصير بذلك موضع التندر والسخرية .

* * *

وتركني الاستاذ « علم » بعد ساعة من حديث طويل عريض .. تطرق فيه للفن والموسيقا ، والرسم والدين وعلوم الطبيعة والفلك .. وضرب لي مثلا بعبقريته وتفوقه ومعارفه .

وترك في نفسي أسئلة عديدة ، لم أستطع أن أجد لواحد منها الجواب .. وظللت حائرا ، وظلت الحيرة تتعاظم في نفسي وتكبر بعدما توطدت معرفتي بالاستاذ « علم » الذي صار يوم الجمعة لديه ميعادا طيبا ، فيأتي لملاقاتي ويجلس بقربي ساعة وبضع الساعة ، ويغادرني بعدها ووجهته البساتين .

ومشيت خلفه دون أن أشعره بأنني أتبعه ..

ووجدته يسير حتى يصل الى النهر ، ويجلس هناك عند الطاحونة تحت ظل شجرة عتيقة ، بعد أن يكون قد أطمأن الى المكان وخلوه ، وافترش العشب الاخضر وغاب ـ وهو ينظر في النهر ـ عن الوجود ، وعن نفسه وعن كل شيء حوله .

وقبعت في ركن بعيد عن الاستاذ « علم » ، وظللت أرقبه دون أن يفطن الي او يلمحني .. وفي نفسي فضول شديد لان أعرفه على حقيقته حينما يكون وحيدا.

ومرت لحظات صمت خلتها ساعات طويلة مملة ، أخرج بعدها الاستاذ « علم » مزمارا من جيبه ، وصار ينفخ فيه انغاما شجية عذبة هي أقرب الى النواح منها الى أي نغم مفرح آخر .

وصورت لي هذه الانغام صورا عديدة كانت تلوح لي كلها متشحة بثياب سود ، وتتزين هذه الصور الحزينة بباقات من زنبق أبيض ..

ومر بي رجل عجوز يجر وراءه حماره ، وقد حمله كيسا من قمح أتى به للطاحونة .. واستوقفت الرجل العجوز ، وقد ذهل حين رآني مختبئا ، وقلت له :

ـ لا بد أنك تعرف ذلك الرجل الذي قرب النهر ..!

فتطلع الي الرجل بفضول غريب ، وتمنى لو لم يجاوبني .. ولكنه لمح الالحاح بين شفتي يتردد مرة أخرى في السؤال .

فقال :

ـ انه الاستاذ علم . الجميع يعرفونه ، مأواه العزيز هنا حيث يمضي كل يوم ساعات ينفخ في مزماره حتى يعييه النفخ ويمل ، فيعود ..

ـ ولكنه ينفخ ألحانا حزينة ..!

لم يلتفت الي ، وجر حماره ودخل الطاحونة .. وكأنه يريد أن يطحن فيها أحزانه وعمره ، والسنين الهرمة التي على كتفيه .

* * *

ومضت أيام كثيرة ، وتوطدت علاقتي بالمدينة الجميلة ..

وعرفت الاستاذ « علم » جيدا ، وألفت مظاهره الغريبة الشاذة التي يبدو فيها كل يوم ..

ولم أذهب مرة أخرى خلفه لاعرف مكانه المفضل ، ومأواه العزيز .. فقد غدوت أعرف عنه كل شيء تقريبا .

واستطعت أن أربط في خاطري حادثة سمعتها مرارا على لسان زملائي وأصحابي من أهل المدينة .. من أن فتاة جميلة رائعة ، كانت تعشق شابا كان يدرس منذ سنوات في مدرسة الشريعة .. وكان هذا الشاب يحبها الى درجة العبادة ..

وتقدم لخطبتها من أهلها ، وهو على وشك التخرج شيخا مدرسا ..

ولكن أهل الفتاة حالوا بينه وبينها بحجة أنه فقير وهم أغنياء ، وأنه شيخ وهم من علية القوم .

وطردوا الشاب المعمم ، وأفهموه أن ابنتهم لن تتزوج شيخا أبدا .

وبعد أيام وجدت جثة الفتاة الجميلة الرائعة غارقة في نهر العاصي ، قرب البساتين عند الطاحونة ..

فقد انتحرت وماتت من أجل الحب .!

واستطعت أن أسأل نفسي أكثر من مرة ـ وبكل صراحة وعزم ـ كلما رأيت الاستاذ « علم » في الشارع بأزيائه المختلفة :

ـ اتراه كان هو الشاب الذي انتحرت من أجله فتاة جميلة رائعة بأن رمت نفسها في النهر وماتت قرب الطاحونة عند البساتين ..؟!

ثم أعود فأنظر الى ساعتي حين أراه في الشارع .. وأعدل فيها بضع دقائق وثوان .. فهو دائما يمر في لحظة معروفة ومعهودة ..!

عدنان الداعوق

مغامرة

شعر : خديجة الارناؤوط

أنا عبدة بيضاء تقتات الغزل ..

وعبدتني ..

استجديت مني قبلة ..

وهنا .. ركعت بجانبي متوسلا !!

وهنا .. ارتميت ..

أنا لا أضن بها عليك ..

كلي اليك !!

★

شوق هلج صارخ في ناظريك ..

أحرقتني ..

وبساعديك شددتني ..

وبمرفقيك هصرتني .

وكأنني جزء لديك !!

★

هدهدتني حلما عجيبا في يديك !!

وسدتني اغلى الزهور ..

ورشقت لي كل العطور !!

وفرشت لي زاهي الامل ..

وشوشتني اسطورة ..

« آمالنا بيت لنا

بالقرب منا طفلنا » ..

ورسمت لي أحلى الصور !!

★



أطعمتني شهد القبل ..

اسكرتني حلو الغزل !!

ارضعتني شفة ..

خمورا .. وعسل !!

★

وضممتني جسدا يذوب ..

دنيا تغيب بناظري ..

دنيا تغيب !!

وخلقتني انسانة ..

أنثى احس ..

فأرتمي في ساعديك ..

كلي اليك !!

★

السم - يا أفعى - يـدور بداخلي ..

أرهقتني ..

أثقلت عنقي بالقبل ..

أودعت لي كل الخجل !!

★

عذبتني ..

أرأيت بيت العنكبوت ؟! ؟!

صيرتني أوهى ..

أذوب ولا أحس

أني أذوب !!

★

أنا ياحبيبي لا أخاف

فلتهترىء هذي الشفاه ..

ولتحترق هـذي القلوب !!

أنـا لا أخاف ..

لانني في ساعديك ..

أنثى أحس

فاحتمي في ساعديك ..

كلي اليك !!

★ ★ ★

دمشق ـ خديجة الارناؤوط

ادباء اليوم

بقلم : معلّى الصارم

لا بد للمؤلف من أن يخلق صورة من خياله أو واقعه أو منهما معا ، ويرسم طريقا تؤدي الى أهدافه ومقاصده •• ولشتان من يخلق الصورة الرائعة والفكرة السامية فيبحثها ويجلو جمالها ، ومن يخلق الصورة المشوهة والفكرة العقيمة ذات المعنى الرخيص والهدف الدنيء •

ان في الطبيعة كثيرا من انفكر الحية اشاح عنها المؤلفون أبصارهم الى ما لا حياة فيه •• وانها للغرسة التي لو تعهدت لآتت اكلها ، فأغنت الناس عن كثير مما يتعهدون • وفي الحياة الميدان الانساني الذي تزدحم فيه الافكار والخواطر ، والايحاء الذي تتفجر له العقول أشعة وأضواء ، فيها الموضوع الذي يهز الادمغة فترشح روائع وابداعا ، ففي كل نظرة قصيدة ، ومن وراء كل فكرة ملحمة ، وتحت كل موضوع كتاب ، فضلا عما يعطيك المجتمع العربي من صور وألوان ، يجد عقل الاديب فيها مجالا واسعا ، ومسارح تأخذ النفس فيها لذتها وأنسها •

ومن هنا طلع علينا اثنان : أديب يبحث عما فيه حياة ومعنى ، وآخر يبحث عما لا طائل تحته : ذلك الاديب الذي أخذ من الطبيعة أوفر كنوزها ، وأروع موضوعاتها ، أخذ منها المعنى الذي تنبض جوانبه بالحركة وينطق كله بالحياة والخير والجمال ، أخذ الفكرة السامية وفتح الطريق المؤدية لاجمل الاهداف وأجل المقاصد ، فنسج حولها القصة التي ضربت لها القبة الواسعة في سماء الادب ، وصاغ الموضوع التي تتفتق عن جوانبه جداول العبقرية والنبوغ ، ونقى ألفاظه من الاوضار والشوائب •• ذلك الاديب او المؤلف الذي حمل بين أنامله براعته ، وخلق من خياله لوحة وضع عليها مخطط دنيا ظليلة بالخواطر ، أضفى عليها العقل الكبير الرونق والجمال •• يستلهم الابداع من أفانينها وفنونها ••

وتذوب هذه الدنيا العامرة بالخير في طيات العدم ، ويخرس هذا الاديب الناطق عندما تلوح على المسرح الادبي أشباح تحوم على ذلك النور المتوهج كأنها تود اطفاءه لتخلد الى الظلام الدامس الذي اعتادت أن تعيش فيه ، ظلام خواطرها وهواجس أفكارها • ويقال ، انهم بنوا فجددوا وشادوا فأعلوا ، والحق أنهم صنعوا من أخيلتهم دنى واسعة الآفاق بعيدة المدى تعمر بمحب وهاجر ، ووعد واخلاف ، وغدر ووفاء الى ما هنالك من تصوير هجين يزينه لهم عري فاضح •

واذا بالقارىء الذي عاش في تلك الدنيا التي خلقها الاديب من عقله ووعيه ، من احساسه ووحي شعوره ، من خياله وتصويره ، وفتق فيها الخير والجمال ينابيع وجداول ، وأقام نفسه مأخوذا بروائع فتنته •• اذا به ينطوي تحت أبراده فيغمض عينيه على تلك الصورة الاولى في كتابه الاول ، بالموضوع الاول ، الذي امتزج به وذاب في معانيه وأفكاره ، عندما قام البناة الجدد يبنون فيوسعون ، وعندما نعقوا في كل مكان فملأوا النفوس تشاؤما ، عندما مشوا يرتطمون في الحفر كعشايا الابل ، ويتدهورون في هوات العدم •• واذا بالدنى

الجديدة مسارح يتلاقى عليها خلق كثير ويصفق لها خلق كثير .. ففي الشارع وملء المكتبات ، وتحت آباط الشباب ، قصة حب وغرام أو حادثة بغاء وخيانة .. الخ ..

رحماك اللهم .. لقد بدأ التدهور الخلقي ، ونزل الوباء بالادب والادباء ، ورفعت العبقرية الى رفوف الفناء ، الا من أيدي أناس يموتون ألما وحزنا .. فمن جر هذه الجريمة الكبرى التي من ضحاياها الشباب والاخلاق والمثل ، من ضحاياها أدب الامة التي رصدت نفسها بين النجوم ورسمت ذاتها على جباه الاجيال ، من ضحاياها الاديب الذي بصرنا الحياة الادبية ذات المعنى السامي والروح المتوثبة بتعبير زخم رصين .

ولو سألنا هذا الكاتب الجديد في قصته أو كتابه أو قصيدته . نناقشه الفائدة التي قدمها للمجتمع ، وبيان المعنى الذي أخفاه تحت أردية ألفاظه ، ماذا يقول ياترى ؟! .

ان الادب الذي لا يعنى الا بالنثر الفني أو الكتابة الفنيةاذافقد العناصر المكونة له لا يسمى أدبا . وعناصره الفكرة القيمة ، والعرض الجميل ، والاسلوب الجزل ، والسلامة من الخطأ اللغوي . وعند قراءة هذه الكتب وتدبرها ، نراها قد عدمت هذه القيم أو أغلبها . وبذلك يمكننا تسمية فاتح هذه الطريق يعبر وراءه كثير من المارة ـ ولا سيما الناشئة ـ أنه من الادران التي تتخلل المجتمع السليم فتمرض عقائده وآدابه ومثله ..

اللهم ما خلقت اللغة العربية لتموت غصة وحرقة . ولا الادب العربي ـ وهو عنوان هذه الامة ـ لينبذ ويهان . ولقد جاء الادب المزعوم الطليق من كل قيد ، ليقف نفسه حربا للفضيلة وأهلها .. ولو فضضنا تلك الحقيبة الملأى بهذه المؤلفات ، وهذا الادب لسمعنا فحيح الشهوة الجائعة ، ورأينا ارتسامات النهم الفاغر في كل سطر من سطور هذه الكتب بل وفي كل جملة من جملها .. ذلك الادب الذي يشجع على سلوك الدرب الملتوية ، الادب الخلاعي الذي تستحي الحرة أن تسمعه . (لغة الفراش . لغة اللقاء وزقزقة القبل) وو الخ .. وان القارىء الكريم ليشاركني الرأي به ، ونبو السمع عنه لخلوه من كل ما يسمى أدبا . وهذا ما جعل الاديب بحق يختفي في حلمه ووقاره ، ويكمن وراء عزة أدبه ، لا يكتب ولا يقرأ ، وأغلق باب الانتاج بين يديه ، وألقى القلم الذي طالما دبج به الافكار سواء من ايحائه الذاتي أو من غيره .. ترفعا عن هذه السوق التي تعج بها السخرية والازدراء ، والافتئات على الحق والادب . وبهت لهذا السيل الصاخب من القصص ، من هذا النوع الذي جرف في تياره الشباب ، وصفق له الناشئة من كل حدب وصوب ..

ومما لاشك فيه أن شيوع هذا النوع عائد لمحاكاته ما يختلج في نفوسهم ، وبديهي أن يكون ذلك وحده ..

انما تنجح المقالة في المرء
اذا صادفت هوى في الفؤاد

هذا اللون من الكتابة الذي حام عليه كثير من الكتاب كأنهم الفراش وكأنه النور ، وسلكوه طريقا ، واعتبروه تجديدا ، واتخذوه متعة ، وهذا ما لا يريده أي أديب .

اننا نريد الادب ثورة منتصرة فعالة يستفاد منها في كل زمان ، وقوة تتحدى حدثان الدهور ، وروحا تتوثب في أبناء الامة تنطق بأكرم لغة وأفصح لسان . نريده تاريخا للامة اذا ما انقرضت الامم ولغاتها ، بقي الصرح الذي تزلق عنه الاجيال وتقصر عنه أنامل الفناء . نريده تراثا صافيا بناء يكون ركيزة الجيل الناشيء والاجيال الآتية ، لا لفظا مهترئا يزول بزوال أهله .. فليس فيما يكتب ، نثرا أو شعرا ، قصة أو رواية ، لهذا اللفيف من الكتاب ما يستحق اسم الادب . انما الادب الصحيح ما تعبر عنه خواطر أدباء هذه الامة الانسانيين الذين عقدوا على نواصي الكلمة ، وقادوا اليها المعاني مشرقات كأنها سرائرهم صفاء وخواطرهم نقاوة ..

جرائم الثأر ومكافحتها

تتمة المقال المنشور على الصفحة الاولى

تعقيب

١ – ان واضعي التقارير غالوا بالتقيد بموضوعية البحث التي هي في الاصل من مزايا العلم حتى لكأنما نشهد أناسا أجانب يدرسون مجتمعا غريبا عنهم لا يمتون اليه بصلة ولا تربطهم به وشائج قومية • وبرغم الصفة العلمية الدقيقة لتلك التقارير قد استرعى انتباهنا بعض النقاط التي وردت في بحث الثار الضافي الذي انجزته لجنة سماها المركز • فاللجنة حين ارادت ان تضرب مثلا على كيفية دراستها التي اجرتها ذكرت دراسات الامريكيين لمناطق الزنوج عندهم • فقد جاء في الصفحة الثامنة من تقريرها ما يلي :

« وقد أصبحت الانتروبولوجيا التطبيقية في السنوات الاخيرة حقيقة ملموسة بل بدأت الحكومات المختلفة تعتمد على علماء الانتروبولوجيا وعلى دراساتهم لفهم المشكلات الاجتماعية قبل الاقدام على محاولة الاصلاح ، ويظهر هذا بشكل واضح في امريكا حيث تلجأ حكومات الولايات المختلفة الى الاستعانة بالانتروبولوجين لدراسة وفهم مشكلات المناطق وبخاصة المناطق التي يقطنها الزنوج » •

لقد مارسنا طرائق العلوم التجريبية كالفيزياء والكيمياء وعرفنا كيف تدرس هذه العلوم الظواهر التي تدخل في اختصاصها من الخارج ثم مارسنا طرائق البحوث الانسانية ورأينا كيف يتفاوت أعلام الفكر ومشاهير العلماء في الحكم على الطرائق المتبعة في هذا الميدان ، وكيف يبرز كثيرون منهم اختلاف الموضوعات الانسانية التي تربطنا بها وشائج عميقة عن تلك الظواهر المادية •

وان تمثيل دراستنا لظاهرة الثأر في بعض قرى الصعيد او في غيرها بدراسة بعض الامريكيين لمناطق الزنوج أو بدراسة بعض علماء الانتروبولوجيا لاقوام اخرى بدائية لا يتنسبون اليها ينبغي ان نقبله كمجرد تمثيل لبيان جودة البحث واستقامته لا لبيان اختلاف حياتنا عن طبيعة هذه القرى – وانقطاع اواصرنا بها •

٢ – لكن اللجنة التي تأثرت الى مدى عميق بطرائق علماء الانتروبولوجيا بلغ بها التأثر الى قبول بعض الآراء السابقة والفروض الخاطئة التي نجدها عند اولئك الباحثين •

ولم تقتصر اللجنة على التمسك بنتائج ما وصلت اليه في الصعيد ، بل حاولت ان تضيف النظر والفرض الى الميدان العملي وارادت ان تتلمس الاصول الاولى التي انحدرت ظاهرة الثأر منها الى المجتمع المصري فخرجت اذ ذاك عن حدود الميدان العلمي الذي التزمته ، ويحتاج ما ذكرته في هذا السبيل الى تجلية وتوضيح • لنقرأ ما جاء في تقرير اللجنة عن انتقال ظاهرة الثأر من العرب الى المصريين كأن المصريين الحاليين ليسوا عربا وذلك في الصفحتين الخامسة والسادسة •

« وقد استتبع هذا الاندماج ، ولا شك ، اكتساب المصريين لعادات وتقاليد الفاتحين الحكام وتاثرهم بنظمهم وقيمهم وانماطهم الثقافية • ومن المحتمل جدا ان يكونوا اكتسبوا منهم ايضا عادة ممارسة القتل بدافع الثأر • وهي عادة أصيلة عند العرب كانوا يمارسونها في جاهليتهم

وظلت عندهم حتى بعد الاسلام بحكم تنظيمهم القبلي الذي يقوم على العصبية للاهل وللعشيرة والقبيلة والتي (هكذا) تفترض وفاء الفرد للجماعة القرابية التي ينتمي اليها والتي يستمد في الواقع كل كيانه ومقوماته منها • والمعروف انه بلغ من اهتمام العرب بالاخذ بالثأر وتمسكهم به انهم اعتبروه واجبا مقدسا (!) يقع عبئه على كاهل الاهل الاقربين ، كما اعتبروا ان من العار على الشخص أن يهمل هذا الواجب ويترك دم قريبه مهدرا بغير ثار ••

ويمكن القول اذن استنادا الى المعلومات غير الوافية التي بأيدينا ان الظاهرة طارئة على المجتمع المصري بمعنى انها وفدت عليه من العرب بعد ان لم تكن موجودة — على الاقل في شكل نظام متمايز واضح — فيه من قبل • ويعزز من هذا الزعم ان نفس هذه الظاهرة توجد بشكل او باخر ومع اختلاف بسيط في التفاصيل في كل الشعوب التي خضعت للعرب والتي تختلف كل الاختلاف عن المصريين القدماء في اللغة والجنس والدين والثقافة والتقاليد • فالظاهرة توجد في كل شمال افريقيا ويعطينا الاستاذ وستر مارك وصفا دقيقا لعادات الثأر في مراكش نستطيع ان نتبين منها مدى التشابه القوي بين ما يمارس في مراكش وما يمارس في صعيد مصر ، كذلك توجد الظاهرة في فارس والعراق وتركيا والاندلس بل اننا نجدها في قبرص ورودس وسردينيا وكريت بل في بعض جهات الهند • وهي كلها بلاد خضعت وقتا ما للغزو العربي (!) او اتصلت بالثقافة العربية اتصالا وثيقا • »

فمثل هذا التعليل لاصل ظاهرة الثأر لا مجال له في التقرير مطلقا اذ كان يناقض تمام المناقضة النتائج العلمية التي ادت اليها الدراسة الميدانية نفسها من ربط ظاهرة الثأر بالبنيان الاجتماعي والقرابي الذي للقرية لا بالعرق العربي او الفرعوني او غيرهما • ولا شك ان مثل هذا التعليل العرقي ربما راج على أقلام بعض الكتاب الاجانب في الزمن السالف أيام الاستعمار • وكان واضعي التقرير قد شعروا بالوهن الذي يداخل كلامهم فنبهوا على ان بحثهم ليس من شأنه ان يحقق هذه النقطة من الناحية التاريخية وتخوفوا من الوقوع فيما يعرف باسم التاريخ الظني او التاريخ الفرضي • ومع ذلك فلا يشفع لهم هذا الاحتراز في مخالفتهم هم أنفسهم نتائج بحثهم التي انتهوا اليها كما لا يشفع لهم هذا الاحتراز في تسرعهم الى بعض التأكيدات التي يشتمل عليها النص المذكور • ونحن نريد ان نحسب ان الذين كتبوا ذلك النص يعلمون على عكس ما يوحي به النص ان العرق المصري القديم قد اندثر ولم يبق من مصر الا اللفظ الجغرافي وان القبائل التي درسوها في الصعيد هي عربية كما يذكرونها ويسجلون هجرتها • فالمصريون والسوريون كلهم عرب على السواء • وهم يعلمون حق العلم على خلاف ما ينطق به النص ان الاسلام لما جاء قضى تماما على ظاهرة الثأر عند العرب وفتح قلوبهم ونفوسهم للقيم الرفيعة واصبح أخذ الثأر جريمة لا تغتفر — لا واجبا مقدسا — ومرتكبها مخلد في النار او مضاعف العذاب فيها وهو ممنوع عن الميراث ومأخوذ منه القود او الدية عند التراضي • وأحوال الثأر نادرة جدا مذكورة في تاريخ الاسلام مثل حادث مقيس بن صبابة الذي ارتد غب ثأره ونزلت فيه الآية الكريمة « ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه واعد له عذابا عظيما » وقد روى عن الرسول قوله : « لو ان أهل السماء وأهل الارض — اشتركوا في دم مؤمن لاكبهم الله تعالى في النار » وقوله : « الايمان قيد الفتك » ومعناه ان الايمان يمنع المؤمن ان يفتك بأحد ويحميه ان يفتك به فهو له قيد • وتفصيل ذلك كله معروف في أحكام الجنايات في كتب الفقه والاصول • وظل الامر كذلك طول الحكم العربي الاسلامي • وقصة هدبة بن خشرم في زمن الامويين معروفة فلقد حبس لما قتل حتى كبر ابن القتيل وطلب القود • ولا يجوز بحال من الاحوال ان نغفل

عن تفاصيل تاريخنا ولا ان نسارع في مثل هذه الاحكام التي تتعلق بماضينا .

واذا كان بعض الباحثين الغربيين ليسوا مطلعين على تاريخ الاسلام وأحكامه فان بعضهم الاخر يشهد بانهيار نظام الثأر لما ظهر الاسلام . ولربما اعتدنا نحن العرب في العصر الحاضر الا نذعن الا لحكم العلماء الاجانب . ولذلك نذكر هنا رأي جاستون ريشاد في كتابه الذي أصبح قديما وعنوانه « تطور العادات » فهو يذكر في بحث ثأر الدم تداعى نظام الثأر تجاه مجيء الديانات التي نوهت بالتوحيد ويقول ما ترجمته الحرفية : « ودليل آخر على الطبيعة الدينية للثأر انه ارتد القهقرى أمام أفكار دينية أعلى وأعمق ولا سيما أمام مذهب التوحيد » وبعد ان يذكر انهيار الثأر بعد مجيء ديانة موسى عليه السلام يقول : « ان التوحيد الاسلامي كان له نفس الاثر عند العرب » [1]

ثم يشير في موضع آخر من الفصل الى ان البربر في المغرب احتفظوا أكثر من العرب بالتقاليد القديمة لعلاقات الاسرة ، فلم يزل الثأر عندهم بمثابة حرب أهلية يصلون بنارها وتمس أي قريب للقاتل مهما كانت درجة قرابته [2]

ومن المعلوم روابط القربى الدموية بين طائفة من البربر وهم « التواركة » وبين المصريين القدماء الذين انقرضوا ..

٣ ـ هذا ولا شك في أننا نستطيع دائما ان نستفيد من علوم الغرب المختلفة وان نحذو حذو الطرق التي تسلكها هذه العلوم أيا كان نوعها ، حتى العلوم الانسانية . ولكن ينبغي ان تكون ثقتنا بأنفسنا وبممكناتنا أكبر وأعظم وعلينا ان ندخل بعض التعديلات على تلك الطرق العلمية بما يضمن نفعها في مجتمعاتنا لان تلك الطرق ليست ابدية ، بل هي ذات صفة تاريخية بينة ، فهي تتغير وتتبدل مع تطور التاريخ ومع تبدل الحياة الاجتماعية ، كما تتبدل الطرق والاساليب السياسية انفسها ولذلك لا غرو

---

(1) Gaston Richard, L'évolution des Moeurs, Paris, 1925, p. 153 .

(٢) المرجع نفسه ص ١٥٨ .

ان نشاهد في ميدان البحوث الاجتماعية طرقا علمية احدث وانجع تتصف بالالتزام فهي تريد ان تغير المجتمع في الوقت الذي تدرس فيه هذا المجتمع ولعل المدرسة الاجتماعية السوسيومترية الحديثة في الولايات المتحدة والمدرسة الديالكتيكية في البلاد الاشتراكية اليوم تنطقان بضرورة عدم الاقتصار على طريقة واحدة في البحوث الانسانية .

٤ ـ وعلى هذا يترتب علينا بعد تبين طرائق البحث المختلفة في الغرب والشرق وبعد الاطلاع الصحيح الكافي على حضارتنا العربية الاسلامية السابقة ان نتعرف مشكلاتنا ونعالجها معالجة أصيلة ناجعة في ضوء ثورتنا التي نعيشها وبالاستناد الى المرحلة التاريخية التي نمر بها . ومجرد هذا الشعور يزودنا بسبل جديدة قد نسلكها لدراسة ظاهرة الثأر او لعلاجها .

فدراستنا للثأر ومعالجتنا له ينبغي ان تتمشيا مع وضعنا الاجتماعي واتجاهنا القومي الحديث .

هذا وان توصيات لجنة الثأر التي سبق ان لخصناها على غاية كبيرة من الاهمية وهي تدلنا على الذرائع التي يجب اتباعها لمكافحة الثأر ولو بصورة غير مباشرة .

ولا شك ان تفهمنا لروح الثورة الحديثة في الجمهورية العربية المتحدة يستطيع ان يمدنا بعون كبير في هذه المكافحة .

ذلك ان روح الثورة يقتضي توجيه الابصار الى اهداف جديدة قومية وعالمية من مكافحة استعمار ومن تحرير البلاد الافريقية ، ومن جمع كلمة البلاد العربية ومن مبدأ الحياد وعدم الانحياز ومن اعلاء منار القومية العربية ومن اقامة دعائم المجتمع الديموقراطي الاشتراكي التعاوني وهلم جرا . وهذه الاهداف اذا اكدت ونوه بها في جميع انحاء الجمهورية العربية المتحدة قاصيها ودانيها ريفها وحضرها أمكن تعبئة القوى الشعبية وتاليبها نحو تلك الغايات المشتركة . وتحول المجتمع المغلق في بعض القرى الى مجتمع مفتوح . هذا كله بالاضافة الى التغيرات الاساسية الاكيدة الحاصلة في ميدان الصناعة وهي التي أشارت اليها التوصيات .

ان علم التحليل النفسي يستطيع هنا ان يقدم بعض الخدمات . ولقد ماز فرويد الى جانب نزعات الليبيدو التي هي عنده قوة حيوية فطرية غريزة العدوان التي هي غريزة الاتلاف والموت . وهاتان الغريزتان تتراكبان وتتدافعان لتؤلفا في الواقع لحمة مختلف الظواهر الاجتماعية وسداها .

ومن واجب الحضارة ومن مصلحة أفرادها ان تضغط على غريزة العدوان وتحولها عن مجراها . وقادة الشعوب الماهرون هم الذين يعرفون كيف يستثمرون هذه الطاقات ويصرفونها ويوجهونها الى غايات نبيلة مشتركة قومية وعالمية مثل حماية الاستقلال ومكافحة الاستعمار من جهة ومدافعة عوادى الطبيعة من جهة ثانية ، هذا زيادة على بناء المجتمع وتنظيمه ، واقامة اركان النهضة بجميع جوانبها .

وظاهرة الثأر تدل على نوع من الطاقة كامنة في الشعب . ومن الضروري تحويلها الى الاهداف القومية السامية والغايات الاشتراكية النبيلة واحلال التعاون مكان الخصام كما يليق بالمجتمع الناشىء الحديث .

وفي اشكال الحكم الحديثة التي تعتمدها الثورة مجالات متعددة لهذا التحويل . والعلم لا يكتفي بمجرد المشاهدة والوصف والتفهم . بل هو يتجاوزها جميعا عند حصول المعرفة الى التوقع . والذي ندعو اليه هو ان تتجاوز أفكار الثورة ميدان السياسة فتبلغ الى ميدان البحوث الانسانية، لان الثورة ينبغي ان تكون عامة لا ان تكون محصورة في مجال دون مجال .

وتنظيم الاتحاد القومي الذي يضم جميع أبناء الشعب من شأنه ان يهتم بجميع الظواهر الاجتماعية وان يعالج ما كان منها غير سليم كظاهرة الثأر . ولعل أكبر دليل على ما نقوله هو دعوة المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية فريقا من أعضاء الاتحاد للاشتراك في هذه الحلقة التي تتدارس مشكلات الجريمة .

وكذلك نظام الادارة المحلية يكون عونا على معالجة القضايا المحلية وسيعمل على الاستفادة من جميع طاقات الشعب ايا كان نوعها لتوجيهها نحو الخير والتعاون والتقدم .

ولا شك ان الاتحاد القومي بأشكاله الفرعية ومكاتبه ولجانه ونظام الادارة المحلية بتفصيلاته سوف يوليان مشكلة ظاهرة الثأر عنايتهما لمعالجتها حين يوجهان نفوس الافراد الى العمل الايجابي التقدمي والى التعاون والى اعتبار الاشتراك في الاهداف القومية والانسانية أهم من مجرد روابط الدم .

ويصح عند تقدم تنظيم الاتحاد وتوطد نظام الادارية المحلية ان تبعث تيارات تزاور بين سكان القرى وبين الريف والمدن للاطلاع على بعض جوانب التقدم في بعض المناطق بغية المحاكاة والمباراة في مضمار النجاح.

كذلك لما قامت الثورة بالاصلاح الزراعي وكافحت الاقطاع وقصدت الى زيادة الدخل القومي والى رفع مستوى المعيشة بين طبقات الفلاحين والعمال والى نشر التعليم والثقافة بينهم سوف تيسر ما دعوناه بالحراك الاجتماعي والاقتصادي وتشيع فكرة التقدم بين الافراد وهذا كله مما سوف يقوض اسس ظاهرة الثأر .

والهيئات العلمية العليا التي تهتم بالجوانب الاجتماعية على تفاوتها تتابع مع الهيئات القومية مثل الاتحاد القومي والسلطات المسئولة تطور القضايا الاجتماعية وتدرسها في تطورها لا في سكونها وجمودها ، وتتقدم بالمقترحات الناجمة وفقا لذلك التطور وذلك بغية تلافي الاخطار بالاضافة الى معالجة الادواء .

٥ – وحسبنا في الختام ان نقترح بعض الدراسات ذات الصلة بظاهرة الثأر . هذه الدراسات على أنواع بعضها نظرى ذو صفة ايجابية يكلف به جملة من الاختصاصيين نذكر على سبيل المثال موضوعين عامين : الاول « العلاقات الانسانية الحديثة في المجتمع الديموقراطي الاشتراكي التعاوني » والثاني « سبل التعاون بين الاتحاد القومي والهيئات المسئولة في مكافحة الاخذ بالثأر »

وبعضها عملي ميداني نذكر على سبيل المثال :

« البحث عن العناصر الانسانية المحرضة على أخذ الثأر »

ويمكن ان يتم مثل هـذا البحث في بعض قرى الصعيد أيضا • ذلك ان التقارير المقدمة أشارت كلها الى وجود محرضين ومستشيرين يدفعون بعض الاشخاص على أخذ الثأر ويشعر القارىء برغبة في زيادة الاطلاع لان العنصر الانساني هو الاساس في ارتكاب الجريمة او هو الاساس في احلال التعاون ، اما الظروف الاخرى فيمكن ان تكون حاملة على التعاون كما يمكن ان تكون دافعة الى الشقاق • ومثل هذه الدراسة سوف يعين على تلافي الحوادث السيئة بمكافحة المحرضين والمستشيرين•

ثم ان بعض تلك الدراسات يقدم على أشكال منح لطلاب الماجستير او الدكتوراه قيمة المنحة (١٥) جنيها في الشهر لسنة قابلة للتجديد نذكـر هنا مثالين لهـذه الدراسات الاخيرة :

١ ـ قضاء الاسلام على ظاهرة الثأر عند العرب •

٢ ـ ظاهرة الثأر عند عرب الجاهلية وعلاقتها بالشعر العربي •

وهـذا البحث الاخـير مفيد من الناحية النظرية التاريخية والادبية معا • وطرافته هي التي جعلتنا نقترحه وذلك ان الادب الجاهلي متصل اوثق الاتصال بفكرة الثأر مثله في ذلك مثل كثير من أشعار الامم الاخرى القديمـة • فالالياذة في نظـر علماء الاجتماع الغربيين عبارة عن رواية ثأر مثلث : ثأر اليونان حين خرق باريس حقوق الضيافة ، وثأر اشيل الذي اغضبه اغاممنون ، وثأر اشيل من هكتور بعـد موت باتروكل • وتشتمل فصول الالياذة الاخيرة على وصف رائع للثأر مع ما تحتوي عليه هذه الظاهرة من عقائد تدعمها ومن عواطف جامحة تتصل بها • وفي رأينا ان مثل هذه الدراسة في تاريخ الادب العربي سوف تظهر جانبا من أهمية علم الاجتماع للادباء كما سوف تفتح مجالا جديدا للبحث أمام علماء الاجتماع • ان القصيدة التي استهللنا بحثنا ببعض ابياتها تبدو لنا بمثابة نشيد الثأر • واذا صح انها لخلف الاحمر لا لتأبط شرا عرفنا كيف عمد هذا الراوية الاسلامي الى تغطية اشعاره ونحلها آخرين قدماء بمعالجة موضوعات جاهلية صرف •

٦ ـ وخلاصة القول ان روح الثورة ينبغي ان تمتد الى الهيئات العلمية • وكل بحث يقوم بـه رجال العلوم ينبغي ان ينجز في ضوء هذه الروح الخلاقة • وعندئذ لا يلبثون ان يجدوا الاساليب الجديدة الملائمة الناجعة •

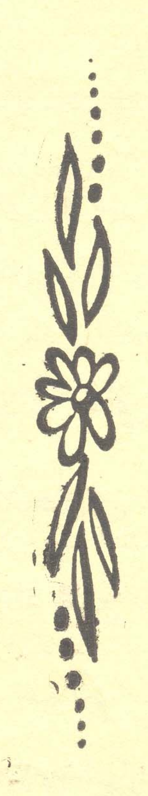
والهيئات الفكرية الحديثة أمثال المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية اولى المؤسسات بهذه الخطا الجريئة و لاشك انها سائرة في هذا السبيل ••

عبد الكريم اليافي



شعر ..

سعيد قندقجي



تمرد

أين يـازورق أحلامـي أناشيدي وحبـي

أين قيثاري يذيب الشوق في احناء قلبي

أنجما حيرى كاشباح السنا تجتاح دربي

لن يطول الليل فاخفق ياشراع ولا تلب

★ ★ ★

هدأة الموج بقايـا من كهوف الذكـريات

تلك أيـامي كفيض النور في أمس حياتي

لا تبالي أيهـا المـوج بـأغلى امنياتـي

فغدا أمـلأ كأسـي من أباطيل رفاتـي

راقصة

ومضت ترقص كالاحـلام في عفوة شـاعر

هي دنيا من فتون عـارم الالهـام ساحر

تتهـادى كانسياب اللحن في أعمـاق خاطر

زفهـا القيثـار اعصار اشتهـاء في النواظر

★ ★ ★

سكـر الـدل بجفنيهـا واغضت مقلتاهـا

وتـراءى مـوكب النشوة رفقـا فاحتواهـا

هي والعري وأطيـاف احتراق من صباها

ثـورة تشعل اقداحي لهيبا كـم طواهـا

شعر : سعيد قندقجي

عمال متذمرون في المنطقة الالمانية المحتلة من السوفييت

زيادة في العمل بالرغم من زيادة التوفير :

ادى قانون العمل الجديد الذي ظهر منذ مدة قريبة في المنطقة المحتلة من السوفييت الى احداث اضطراب كبير بين العمال . وكما يحدث في كل مرة غالبا عند صدور اجراءات جديدة لاصحاب السلطة في المنطقة المحتلة فلقد استطاع العمال هذه المرة ان يكتشفوا بسرعة ما هو المقصود من هذا القانون الجديد وما هي النقاط الموجهة ضدهم فيه . وبالطبع فقد رافقت هذا القانون موجة دعائية ضخمة حركها موظفو حزب الوحدة الشيوعي لوسط المانيا لكي تجعل هذا «النصر الاشتراكي الجديد» أي هذا القانون مقبولا بالنسبة للسكان ، ولكن كل هذه المحاولات لم تجد فتيلا .

هذا ولقد اصدرت الان «نقابة الوحدة» الموجهة توجيها شيوعيـا تعليمات الى رجالها المسؤلين تلقي ضوءا على الاسباب الخفية الحقيقية التي تكمن وراء اصدار هذا القانون ، هذه التعليمات حرمت على هؤلاء المسؤلين النقاش العلني مع العمال حول نقاط معينة في القانون الجديد ، منها مثلا مسألة تطويل وقت العمل التي لم تذكر تعمدا في نصوص قانون العمل ، او حول حرية اختيار مكان العمل التي جاءت مبهمة تمام الابهام في القانون بحيث اخذ العمال يتشككون بحق من ان هناك أهدافا خفية تلاحقها النقابة تختلف تمام الاختلاف عن الاهداف الرسمية المذكورة في هذا القانون . وأخيرا حرم على المسؤلين النقابيين الكلام عن نسبة القيمة العالية المنصوص عليها في القانون التي ستنقص من الاجور في حالة الانتاج المنخفض او العديم الجودة .

بينما نرى من جهة ان أي مناقشة مع العمال حول هذه القضية قد منعت ، نلاحظ ان قانون العمل الجديد هذا قد اتخذ في المراجع العليا وبين المسؤلين الشيوعيين الكبار كنقطة انطلاق المقصود منها التقتير والتوفير . بهذه الروح انتقد «ظابط التخطيط» لمنطقة الاحتلال السوفييتية والمسؤل الشيوعي بنفس الوقت (لويشنر) ، انتقد امام المجلس الاعلى لحزبه ذلك التبذير في المعادن والنقود وطالب الصناعة بان تعمل على مسك يدها اكثر مما هو عليه الان وان تشدد الرقابة وان تعمل على تحسين طرقها الانتاجية . ولقد انتقل الحديث رويدا رويدا بين الاوساط العمالية بان اقتصاد المنطقة المحتلة سوف يعاني اوقاتا عصيبة اذا ما بقي على هذا الاتجاه . وذلك ان التخطيط يهدف بالرغم من استمرار الاستيراد من الجمهورية الالمانية الاتحادية وبالرغم من احتمال توقيع اتفاقية جديدة بين الجمهورية الالمانية الاتحادية والمنطقة المحتلة من السوفييت ، بالرغم من كل هذا فالتخطيط يهدف عن طريق الاجراءات التقتيرية الشديدة الى جعل اقتصاد المنطقة المحتلة مستقلا وغير متأثرا بالكميات المستوردة من البضائع والخامات التي تأتي من الجمهورية الالمانية الاتحادية . وليس هذا فحسب بل ان التخطيط يهدف أيضا الى اعلاء مقدار العرض المقدم من البضائع الاستهلاكية للسكـان والى توسيع برنامج التصدير .

ان موظفي النقابات العمالية يسلمون ويعترفون بانفسهم بان تحقيق هذه المهام والاهداف المتراكمة لايمكن الوصول اليه الا «بتأييد العمال التام وباندفاعهم» أما العمال فيقولون شيئا آخر» على اكتافنا وعن طريق خساراتنا المالية يريدون هنا ان يحققوا أهدافا غير قابلة للتحقيق اصلا » .

هذا وقد حدثت في بعض مدن المانيا الوسطى (المانيا المحتلة) محاولات عدة قام بها العمال بقصد اجبار المسؤلين النقابيين والشيوعيين على التصريح حول قانون العمل الجديد ، غير ان رجال حزب الوحدة الشيوعي اخفوا انفسهم كما هي العادة تحت سيل من الكلام الدعائي المعروف ولم يتطرقوا البتة الى الاسئلة المتعمدة والحساسة التي طرحها العمال عليهم .

وختاما فلقد كان بيد الموظفين الشيوعيين والنقابيين حجة قوية لعدم الدخول في مناقشة مع العمال اصلا ولعدم القيام باجتماعات وتصريحات كثيرة، وكان ظابط التخطيط هو الذي جاءهم بهذه الحجة ، حيث جاء في بيانه بشكل مختصر بان الخسارة الانتاجية لثلاثة اشهر فقط التي نتجت عن ترك مكان العمل وتخلف العامل عن عمله بعض الوقت لحضور الاجتماعات والمجالس والمناقشات وغيرها من الاحتفالات السياسية ، ان هذه الخسارة قد بلغت مائتي مليون من الماركات (٢٠٠) ..

وهكذا فان مشروع التوفير يجب ان يشمل هـذه الناحية أيضا ..



شعر : سليمان احمد معروف

- ١ -

لا تمسي جراح كبري،فقد ضاقت حياتي ذرعا بتلك الجراح
واتركيني ٠٠ لثورة الالم الصامت ٠٠ أقري ليلي بها ، وصباحي
ولذكرى ٠٠ تعيد لي صور الامس ظلالا تترى على ألواحي
وتريني مراحلا ٠٠ من حياتي لم انفض من عطرهن وشاحي
ودروبا ٠٠ سلكتها ، وميادين ، ودنيا من صبوتي ومراحي
وأماني طفولة ، ورفاقا بعثرتهم يد القضاء الماحي
وخيالا من جدتي ، وحكايات ٠٠ عن العاصفات ، والاشباح

- ٢ -

وليالي الشتاء ، والموقد الدافي ٠٠ يرش الرماد فوق ثيابي
وصغارا من اخوتي يتبارون برجم الحصا على الابواب
وعفاريت ٠٠ صورتها الاساطير ظلالا تموج في أهدابي
وعذارى ٠٠ في جانب النهر يتلين على ضفتيه لحن التصابي
وعجوزا يجر ساقيه ، أضنته هموم الحياة ، والاوصاب
ساحبا خلفه السنين ٠ وأشلاء صباه تطل من ألف باب
ومناه مشردات ، على درب ٠٠ بعيد المنى ، شتيت الرغاب

- ٣ -

ودروبا تضيق بالشاء وشتها بألوانها أكف الربيع
ورعاة ترود بالنغم الحلو بقيعا وتنثني لبقيع
يرسلون الالحان في عدوة الوادي ، أنينا ، مبللا بالدموع
وأرى من وراء ذكراي بيتا كان مهوى صبابتي وولوعي
وجدارا يكاد ينقض أسندت الى ركنه الرحيم ضلوعي
ورفاقا ٠٠ تكاد تنفر من قلبي ذكراهم ٠٠ لغير رجوع
وأناشيد ٠٠ في غياهب ذكراي تلاشت اصداؤها من ربوعي

- ٤ -

آه لو كنت تعلمين طموحي وانطلاقي في عالم المجهول
ومسيري ، في موكب الشمس أجتر بقايا صباي دون الوصول
لتعجبت كيف طرت مع الوهم ، وشارفت موطن المستحيل
واستبقت الحياة ٠٠ احتقب الذكرى ، وأذرى أطيابها في سبيلي
وعلى الدرب ٠٠ من أساي عصارات فؤاد مقطع مكبول
وصدى ٠٠ من مفاوز الابد الغافي ٠٠ تحامته جامحات العقول
وترانيم كاهن ٠٠ ينفث السحر على سفح دربه والتلول

- ٥ -

لست تدرين من أنا؟٠ أفتدرين ٠ وقد كنت نجمة في النجوم ٠؟
كنت بين الشموس دفقة نور يتهادى شعاعها في الاديم
كنت في مقلة الآله دموعا وأنينا في صدره المكلوم
وصدى آهة يرددها الوادي ، ونجوى يتيمة ويتيم
وشحوبا في وجنة البدر ٠٠ وزعت على درب عاطفاتي نعيمي
كنت في غرة الصباح شعاعا وعبيرا مفتتا في النسيم
واصفرار في الشمس، في الشفق الخابي، وهمسا يموت بين الكروم

- ٦ -

افتنسين من انا ؟ ٠ وعلى خديك نار ٠٠ عرفتها من شراري
وبجفنيك نفحة من شجوني تستبيح المكنون ٠٠ من أسراري
وبنجواك والدجى يكتم الاسرار ٠٠ ما في الحياة من أخطار
نشوة أنت في خيالي وهمس في ضلوعي من فاجع التذكار
ثم تنسين من أنا ، وأحاسيس فؤادي تذوب في أوتاري
أو ما كنت قبل أن يولد الكون ٠٠ عبيرا يضوع في أزهاري؟
وتمر الايام عجلى ، وما زلت على درب شقوتي في انتظاري

- ٧ -

أنا رجع الناي الحزين ٠٠ فهل مستك نار من قلبي المفجوع؟٠
وأنا بحة على الوتر الباكي ، وهمس مجلجل في الضلوع
وكتاب ٠٠ على حواشيه أطياف ٠٠ تعرت لتكتسي بالدموع
أفتدرين من انا ٠٠ أنا افق من عذاب ، وعالم من ولوع ؟
وربيع ٠٠ جفت عطوري وانداني ، وغابت شمسي لغير طلوع
لست تدرين من أنا ٠ انا طيف ، أفلتته النعمى لغير رجوع
وأنا غفوة النسيم على الورد ، ولحن الرعاة خلف القطيع

- ٨ -

لست تدرين من أنا ، وخيالاتي على الدرب ٠٠ تستغيث ورائي
طرت عن عبقر الى موطن تقصر عنه مطامع الانبياء
مقفر لا يرود آفاقه الوهم على تربة حبت كبريائي
تتلاقى على مشارقه الارواح جزلى ٠٠ في صبحها والمساء
حرم أقدس أبى الحق أن تدنو منه مواكب الغرباء
في رباه تأنقت ريشة الفن ، لتختار موطن الشعراء
بأبي كم الهة وآله في ثراه تلفعا بالضياء

- ٩ -

وعلى دربه تراقصت الجن ومدت ظلالها في سماه
من ثرى عبقر ثراه ، ومن تلك الروابي المحببات رباه
وعذاراه تنشر العطر ألوانا ، ومن عطرهن كان شذاه
وتجلت بدائع الفن ، والشعر رحيق يدار من رياه
وجلونا عوالم الفن يشدو في رباها الهة وآله
واكتشفنا مناجم السحر ، والسحر قلوب وذكريات وآه
وعلى تربه الخصيب خضنا من رؤانا دنيا فكانت رؤاه

وابتلعني الظلام[1]

قصة بقلم : تيسير حاج حسن سطاس

الاهــداء

الى الانسانية المعذبة في كل زمان ومكان ، الى باتريس لومومبا

في ليلة مظلمة من ليالي الشتاء الكئيبة ، وقطرات صغيرة من المطر تبلل الارض الموحلة من جديد والرياح المزمجرة تنافس في ضجيجها ضجيج الضباع الجائعة ، والذئاب الهائمة ، وهي تبحث عن فريسة لتسكت السياط المؤلمة ، سياط الجوع .

كنت خلالها اسير بلا وعي وبلا هدف ، وكانت قدماي تسرعان بي في السير ، بلا فائدة ، اذ انني لم أكن أتقدم خطوة ، حتى اتراجع خطوات ، من شدة العوائق التي كانت تعترض سبيلي ، عوائق الاحجار الضخمة المزروعة في السهول الفسيحة المفلوحة والممتدة في جميع الجهات . كنت ألمح اشبحا تتراقص امامي وتوحي الي بالخوف والفزع ، وكم من مرة حاولت الرجوع الى بيتي ، ولكن أشياء خفية في صدري كانت تدفعني الى المضي في سيري .. تبللت ثيابي ، وشعرت بموجة من البرد القارص تجتاح جسمي ، وحاولت ان اخرج علبة الثقاب من جيب معطفي لاستبين طريقي حتى أصل الى هدفي ، وتذكرت انني ابقيتها مع علبة السكائر في غرفة أخي ياسر .. وفجأة اصطدم جسمي الناحل الطويل ، بجسم اسود تفوح منه رائحة كريهة ، وزاد خوفي واشتد هلعي وحاولت ان اركض .. لكن رجلي ابتا ان تتابعا المسير ، ووجدت نفسي في حفرة كبيرة من الحفر التي تركها العمال في قلع الحجارة لبناء البيوت والطرقات ، شعرت وانا في تلك الحالة المرعبة ان هذا الشبح الاسود قد تقدم نحوي بأرجله الاربع .. ثم وقف أمامي دون حراك ، ونظر الي وهو يهز برأسه ، اغمضت عيني وسترت وجهي بيدي وانا انتظر مصيري المؤلم .. بعد قليل ابتعدت الرائحة الكريهة عني وتأكدت انه ابتعد رأفة وشفقة لحالتي المزرية فكرت بنفسي .. كم كنت قاسيا مع أعز شخص عندي في الوجود .. كم كان هذا الحيوان لطيفا معي هذا الحيوان الذي لا يعرفني ولا يعرف عني شيئا .. تركني رغم جوعه .. لكنه لو كان يعرف حقيقتي لاسرع وفتك بي .. خرجت من الحفرة بصعوبة من شدة الارهاق والتعب .. وتابعت وانا ابكي كطفل فقد امه .. ولمحت من بعيد احجارا بيضاء واسرعت بخطاي حتى وصلت ، ولبثت أكثر من ساعة وانا ابحث ، حتى وجدتني أخيرا أرتمي على الارض وانا اصرخ باكيا : اخي .. اخي .. لقد ظلمتك يا اخي .. وشعرت وانا انادي واصرخ واحفر بيدي وبوجهي اغيب شيئا فشيئا عن وعيي ..

تعجبت من أمري حين وجدت نفسي في غرفة نظيفة ، وفتاة جميلة تعبث بيديها الناعمتين بخصلات شعري التي تناثرت على وجهي ، ودموعها تنهمر على وجنتيها الموردتين ، وهي تنظر الي بعينيها الخضراوين وقد شابهما الاحمرار .. بادرتني تلك الفتاة قائلة : « سمير .. سمير » فقفزت من فراشي صارخا بجنون : أخي أخي ياسر اين انت ياياسر !! لقد ظلمتك .. حاولت الشقراء بكل ما لديها من وسائل ، ان تمنعني عن العويل ، وباءت بالفشل تابعت عويلي من جديد بكل قوة : أخي أخي .. لم أقدرك يا أخي سامحني يا أخي ..

شعرت خلال عويلي ، ان صاحبة الوجه الجميل ، والشعر الاشقر المتطول ، والقامة الهيفاء .. غير غريبة عني .. بقيت مدة طويلة وانا اتفحصها بذهول .. حتى صحت فجأة : احلام !! وسمعت صوتا رقيقا يجيبني : « نعم يا سمير أحلام ، أحلام بلحمها ودمها .. وتابعت صياحي : أيتها اللعينة ابتعدي عني ، ابتعدي عني ايتها القذرة قبل ان احطم رأسك النتن .. اغربي عن وجهي أيتها الحمقاء ..

وبدون ان تبالي بالشتائم ، ساعدتني اللعينة على العودة الى الفراش ، واغمضت عيني بتثاقل ، كأن ضربات من المطارق تتلاحق بعنف على رأسي ، وكأن منجلا يحصد

---

(١) ملخص لرواية طويلة بهذا العنوان تصدر قريبا للمؤلف .

أحشائي حصدا ، • بدأت اتذكر ماضي المؤلم قبل خمس سنوات •• نعم قبل خمس سنوات مضت على ما أذكر •• وكنت أهذي •• تذكرت أخي ياسر الذي يكبرني بثلاث سنين ، وهو يستلم أمر تعيينه في دير الزور ، بعد نجاحه في الشهادة الثانوية وفي مسابقة التوظيف •• وهو يودعني قائلا : « سمير ، انني اتركك مع أمك المريضة ، كن كما اعرفك •• »

ورغم ان راتبه لا يتجاوز المائتي ليرة ، كان يرسل لنا مائة وخمسين ليرة ، وكنت اعجب من تصرفه هذا ، واكتب له قائلا : كيف تستطيع ان تعيش بهذا المبلغ الضئيل ؟! وكان يجيبني : « لا تهتم بي يا أخي الحبيب ، وجه كل اهتمامك لدراستك •• ثلاث سنوات سرعان ما تمضي وتلتحق بالجامعة ، وانا مستعد ان اوافيك بالمصاريف حتى تنال الاجازة •• » وكم من مرات عديدة كنت اطلب منه ان يلتحق بالجامعة ، ولكنه كان يجيبني أيضا : « مستقبلك أهم من مستقبلي »

كانت رسائله تدفعني الى الدراسة ، وتشجعني على مواصلة الكفاح ، الكفاح من أجل مستقبل أفضل لي •• وكانت أمي التي تبلغ الخمسين من عمرها ، تستقبلني فرحة مستبشرة ، حينما أعود من الجامعة وكأنني عائد من قارة أخرى ، وهي تقول سمير !! الحمد لله على عودتك سالما •• وحين أخبرها بتفوقي كانت تضمني بقوة الى صدرها وتقبلني مبللة خدي بدموع الفرح وتقول : «لشد ما يفرح ياسر حين تخبره بذلك ، وحين أخبر أخي بتفوقي كان يرسل الي الهدايا ، • ورغم انه لم يكن يأتي الينا الا مرة واحدة في السنة ، كان يراسلنا بانتظام وبدون انقطاع ، وكانت فترة وصول رسالته أجمل فترات حياتي •• وكانت أمي تشعر بتلك السعادة ، حينما كنت أجلس بجانبها وأقرأ لها الرسائل ، وهي تنظر الي بحنان ، وهي تعيد وضع شعرها الابيض ، ودموعها الرقيقة تنساب من عينيها الباهتتين على وجهها المخطط بخطوط الفقر والحرمان ، وخاصة بعد ان توفي والدي اثر افلاس شركته ، وتركنا في بحر من الديون ، وكان مطلب أخي هو تأمين مستقبلي ، ووفاء ديون والدي ومضت سنوات ثلاث ، وأنا ادرس بجد ونشاط ، حتى نلت شهادة الدراسة الثانوية ، والتحقت الى الجامعة وكان أخي لا يزال في دير الزور ••

وحدث بعد نجاحي ، ان دعيت الى حفلة نجاح زميلي عدنان ، وكان يحسد أخي ياسر لانه نال الشهادة الثانوية قبله بعدة سنوات •• وهناك وهناك •• اجبرني الاصدقاء ان أشرب الخمر •• وبعد الحاح شديد شربت الكأس الأولى ، وياليتها كانت الاولى والاخيرة •• وانخرطت معهم ، في سهراتهم وحفلاتهم الخليعة وأصبحت اتأخر عن العودة الى البيت حتى الصباح •• وبدأت أمي تشك بسلوكي ، وشعرت بشكوكها حين قرأت رسالة أخي التي يقول فيها : « أرجوك يا أمي الا تهتمي بالاشاعات التي تسمعينها عن أخي ، انها اشاعات مغرضة ، وانا اعرف أخي سمير حق المعرفة •• انه شاب طيب •• ، وبعد ايام جاء أخي من دير الزور ، واختلى بي في احدى الحدائق وقال : « لقد ارسلت رسالة الى امك كيلا تصاب بصدمة قد تؤدي بحياتها •• لقد سمعت عنك كثيرا ياسمير •• وانا واثق انك ستعود كما عهدتك سابقا •• ولست متأكد انك •• وسكت ، واختنقت كلماته ، وتغير وجهه ، وكاد يبكي •• ووعدته بانني سابقى على حسن ظنه ، واكدت له قائلا : بان تلك الاشاعات كانت كاذبة • ولاحظت تغييرا كبيرا ولحوظا في صحة أخي •• جسمه الرياضي بدأ ينحف وينحل ، ووجهه الذي كان بلون وردي ، بدا يكمد •• ولم أهتم له ، وعدت الى سيرتي ، وأنا أشد صداقة لعدنان • ومضت سنتان على هذه الحال ، ونجحت خلالها في الجامعة ، رغم المشاكل التي كنت أرتكبها •• وفجأة وبدون سابق انذار ، عاد أخي من دير الزور ولكن بشكل مؤلم لم اتوقعه •• عاد وهو مريض •• وافردنا له غرفة في بيتنا المتواضع •• وكان يسعل سعالا مرا ، وعرفت بانه سرح من الوظيفة لاسباب صحية •• وبعد أشهر أخذ تعويضه •• واخذت قسما من تعويضه بالاضافة الى راتبي ، وحرمته بذلك ثمن الدواء ، وكان راضيا على عملي هذا ••

وياليتني توقفت الى هذا الحد •• لقد خنت اخي ، واستوليت على أحلام حبيبته التي وعدها بالزواج بعد ان انال - انا - الليسانس ، وفرحة الزواج ، وزورت الرسائل التي كان يرسلها الى أحلام ، رسائل الاشواق والوفاء الى رسائل شتم وهوان •• حتى انتصرت على المقاومة العنيفة التي كانت تبديها أحلام ، وبدأت تنحاز الي شيئا فشيئا ••

وبدأ سعاله يشتد باشتداد مرضه ، وعادت أمي من جديد ، واتصلت بالدكتور أحمد عزيز ، وجاء الدكتور عزيز وهون عليها المصيبة ، وأشار لها بنقله الى المصح ، وباعت أمي البقية الباقية من أساورها ، وكنت انا اتناول راتبي دون ان اعطيه قرشا واحدا ، حتى انني لم أذهب لزيارته مرة واحدة أثناء وجوده في المستشفى ، وكان يقول لامي : « دعك منه يا اماه ، ان سمير اخي وانا اعرفه حق المعرفة ، اريد ان يصبح رجلا طيبا مثل والده لينقذ سمعتنا » قاصدا بذلك الافلاس والديون •

وكانت والدتي تتراجاني ان أزور أخي أو اكلمه

بالتليفون ٠٠ ولم أكن أهتم لكلامها ولا بوضع أخي المؤلم بل كـان اهتمامي بالنساء والليالـي الحمراء مـع زمرة عدنان ٠٠

وأعيد أخي الى البيت ، وبحالة أسوأ ، وكان يخفي ألمه عني ، حين استيقظ صباحا واذهب الى عملي وكان يبادرني قائـلا بحنـان : « صباح الخير سمير كيف دراستك ؟! » وكنت أقول له : بخير دون ان انظر اليه ، واذا نظرت اليه كنت انظر اليه شزرا دون ان أسأله عن صحته ٠٠

وكنت اثناء اشتداد مرض أخي ، في البيت المقابل لبيتنا مع زمرة عدنـان في سهرة صاخبة ، وجاءت أمي وبيدهـا رشيتة وهي تبكي وتقـول : « سمير ان ياسر بحاجـة الى دواء ٠٠ اعطني بعض النقود » وجاء عدنان ووقف أمامهـا وبـدأ يضحك متشجعا من سكوتي ومن ضحك الاصدقاء وقال لها : « لماذا تهتمين بياسر أيتها المجنونة ؟! انه في طريقـه الى القبر ، وحرام ان تصرفي عليه قرشا واحدا » ٠ وتعلقت بي والدتي دون ان تهتم بعدنان ، وصحت بها : اذهبي عن وجهي ايتها الشمطاء ٠٠ ودفعت بهـا من الباب ، واصطدم وجهها وجسمها بالحائط وسرعان ما أغلقت البابفيوجهها المدمى ، وكنت اسمع بكاءها وهي في طريق عودتها الى البيت ٠٠ وبعدها بساعات عدت الى البيت وزجاجة الخمر بيدي ، وانا اغني حبك نار ، محدثا ضوضاء عجيبة ، مستندا على جدران المنازل ، وسمعت صوت أخي وهو يقول دون أن يراني : « يجب أن أرى سمير ٠٠ سمير انه طيب ٠٠ ولكن رفاق السوء ٠٠ انه يحبني يا أماه لا تبك يا أماه ٠٠ سيعود سمير كما كان ٠٠ سينقذ العائلة ٠٠ » وتقدمت باتجاه غرفة أخي ٠٠ ولمحت أمرأة تجلس بجانبهودموعهاتنساب من عينيها ، بينما كـانت أمي تصلي صلاة الصبح ٠٠ وكانت تلك الامرأة الغريبة ناديا التي تسكن بالقرب منا، وكانت تأتي لزيارته كل يوم ، وحين سافر أخي الى دير الزور لاول مرة ، سافرت معه ، وحدثنا أخي عنها بانها كانت تقوم بالعناية به دون مقابل ، وكانت تلك الامرأة الغريبة تبكي بكاء مريرا أكثر من أمي ، كامرأة بلغت المائة من عمرها ، ولم يبق عضو من جسمها النحيل الا ويرتعش ، ورفعت ناديا رأسها ، ونظرت الي بقسوة وارعبتني ، بينما كان أخي ينظـر الي بحنان وشاهـد زجاجة الخمر وابتسم بصعوبة ٠٠ وتابع نظره بحنان ولطف زائدين ، واقترب أخي مني ورائحة الخمر تفوح من فمي وثيابي ٠٠ ومد أخي يده ، وضمني الى صدره دون أن تصدر مني أية حركة ، وقال بصوت متهدج : « سمير انك طيب اليس كذلك ؟ هل تحبني يا سمير !!

لقد قال والدنا المرحوم : أوصيك بسمير ان سمير يحبك» وانسحبت ٠٠ وعدت الى غرفتي ٠٠ وتمددت على سريري دون أن أخلع ثيابي وحذائي ، وبعد قليل سمعت حركة ، وفتح البـاب وشاهـدت أخي يغلق الباب ، واغمضت عيني ٠٠ تقدم بهدوء ٠٠ وطبع قبلة على جبيني وجلس بجانب فراشي بعـد ان خلـع ثيابي وحذائي ، وغطاني باللحاف ٠٠ وفتحت عيني قليلا بحيث استطيع ان اراه دون ان يلحظني ، وشاهدته يقوم من مكانه بكل صعوبة وأحسست بأنه يريد ان يجلس بجانبي ولكنه يخاف علي أن أصاب بمرضه ٠٠ وخرج بهـدوء وأغلق البـاب ٠٠ وسمعت صوت ارتطام ٠٠ وقمـتمن مكاني وكان أخي قد وقع على الارض ٠٠ وساعدته على الرجوع الى سريره ٠٠ نظر الي وقـد ارتسمت ابتسامة لطيفـة على وجهه وقال : « انك طيب يأأخي ٠٠ اليس كذلك ياسمير ؟! ولاحظت دموعـه تنسكب حينما كـان يقول ياسمير ،٠ وهززت رأسي علامة الايجاب ٠٠ وتابع قوله : « انني أموت الآن مرتاحا ، اوصيك بأمك ٠٠ وربت على كتفي واهتز جسمه بين ذراعي وقامت المرأة الغريبة تولول ٠٠ وتبعتها أمي وهي تنادي : « ودع أمك ناديا يا ياسر قبل ان تموت ، ان هذه المرأة الغريبة هي أمك ، وفتح عينيه بصعوبة ونظر الى ناديا وقال لها : أماه كنت أشعر بان شيئا يربطني بك حينما كنت تقومين بخدمتي في ديـر الزور ٠٠ لولاك يا أماه ما كنت استطيع العيش يومـا واحدا وصاحت ناديا وهي تبكي وقـد احتضنت ياسر قائلة : « ولدي ــ لا تمت ياولدي ٠٠ واهتز جسمه بين أيدينا ٠٠ ومددنـا الجسد البـارد ووضعت رأسي على صدره وبدأت ابكي ، وعدت الى رشدي ، وقـد طارت الخمرة من رأسي ، ووجدت أخي جثة باردة ٠٠

وجاءت أحلام وسارت في موكب ياسر وهي تبكي ، وعرفت انهـا مـا زالت تحب ياسر ٠ ومرت الايام ٠٠ وعرفت من والدتي ٠٠ بان ذئبا قد اعتدى عليها حينما كانت فتاة ، وخافت من والدها ومن العار ، وتقربت والد ياسر حتى احبها وتزوجها ــ وكان ياسر اذ ذاك يناهز الثالثة من عمره ، وحدث انشقاق بين أمي وناديا حتى اضطر والد ياسر بطلاق ناديـا ، وهددت والدتي تلك المرأة ناديا بانها ستعذب ولدها ياسر ان لم تبتعد عن حياتها ، ولكنهـا لم تستطع البعـاد عن ولدها ياسر ، وظهرت من جديد ، وسكنت بالقرب منا ، وفي صدرها ذلك السر الرهيب ،٠ وخلال بحثي عن مذكرات ياسر ، وجدت دفترا صغيرا ، وقرأت في الصفحة الاولى : « لقد استأجرت مع زميلين لي غرفة احدى الاحياء الفقيرة ، في دير الزور بدون ماء ولا كهرباء ، حتى ولا نوافذ بخمسة

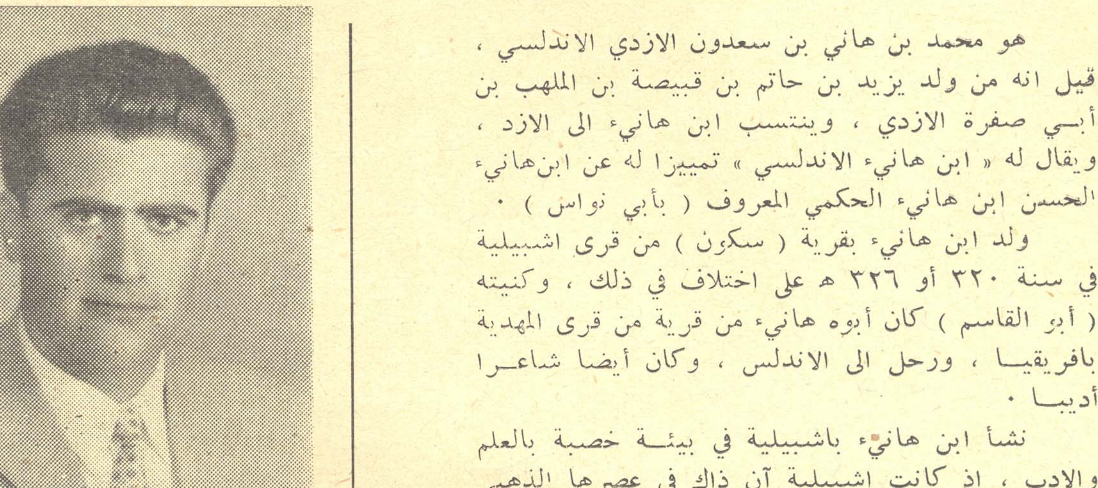
ابن هاني الاندلسي

بقلم : حسن الخطيب

ترجمته :

هو محمد بن هاني بن سعدون الازدي الاندلسي ، قيل انه من ولد يزيد بن حاتم بن قبيصة بن الملهب بن أبي صفرة الازدي ، وينتسب ابن هانيء الى الازد ، ويقال له « ابن هانيء الاندلسي » تمييزا له عن ابن‌هانيء الحسن ابن هانيء الحكمي المعروف (بأبي نواس) ٠

ولد ابن هانيء بقرية (سكون) من قرى اشبيلية في سنة ٣٢٠ أو ٣٢٦ هـ على اختلاف في ذلك ، وكنيته (أبو القاسم) كان أبوه هانيء من قرية من قرى المهدية بافريقيا ، ورحل الى الاندلس ، وكان أيضا شاعـرا أديبـا ٠



نشأ ابن هانيء باشبيلية في بيئة خصبة بالعلم والادب ، اذ كانت اشبيلية آن ذاك في عصرها الذهبي تزخر بالثقافة والحضارة ، فنظم الشعر وبرع فيه ، واتصل بصاحب المدينة ونـال حظوة عنده ٠ ثم اتهم بالزندقة ، فأوعز اليه عامل المدينة بالنزوح عنها ، فرحل الى المغرب ، واتصل هنـاك (بجوهر الصقلي) قائد المنصور الفاطمي ، ومدحه ، ثم مدح والي (المسيلة) جعفر بن علي المعروف (بابن الاندلسية) ، ثم اتصل بالمعز لدين الله (الخليفة الفاطمي) ومدحه بغر قصائده في القيروان ، وأقام بها الى أن قتل ٠

ومقتله موضع خلاف بين المؤرخين ، فابن خلكان يقول : لما توجه المعز الى ديار مصر ، شيعه ابن هانيء ورجع الى المغرب لاخذ عياله والالتحاق به ، ولما وصل الى برقة أضافه شخص من أهلها ، فأقام عنده في مجلس أنس ، وأن السكارى عربدوا عليه فقتلوه ، وقيل انه وجد في ساقية من سواقي برقة مخنوقا بتكة سرواله ، هذا الذي يميل اليه ابن خلكان ، لا سيما وأن بني أمية قد حاولوا جاهدين منعه من الوصول الى المعز ، فلا يبعد أن يكون بعضهم قد استعمل الحيلة في قتله بانزاله ضيفا

عشر ليرة ، وكنت ادفع خمس ليرات ، واتصرف بالباقي أي بالخمسة وثلاثين ليرة الباقية ثمنا للخبز والشاي ٠٠ وحينما ينتصف الشهر كنـا نبحث عن كسرات الخبز اليابسة ، ونبللها بالماء ونأكلها ٠٠ ولولا المرأة الغريبة ناديا وزميلي الاثنين اللذين يعملان معي لاجل هـدف امثل ، لما عشت حتى الآن ٠٠ وفي صفحة أخرى : « كم تمنيت ان أرى والدتي وأخي سمير ، في هذا العيد ، ولكنني آثـرت ان أرسل لسمير تكاليف الطريق التي وفرتها من مصروفي كي يصرفها في العيد ، ليشعر بوجوده مع زملائه » ٠٠ وكلمات أخرى تصف أحواله وعرفت الآن بان اصدقائي كانوا يدفعونني الى كره أخي والسير في طريق الشر ٠٠ وفتحت عيني وكانت أحلام تنظر الي وتبكي ٠٠ وعـرفت حقيقتي وحقيقة الرسائل وكـانت الساعة تقارب الثامنة مساء ، وأصوات الرعد تصم الآذان ٠٠ وتذكرت أخي وقبره ٠٠ وقمت من مكاني وفتحت باب الغرفة وسرت ، ولكن الى أين ؟؟!! لا أدري ٠٠ وابتلعني الظلام ٠٠

دمشق — تيسير حاج حسن سطاس

معه ، وكان ذلك يوم الاربعاء من سنة ٣٦٢ هـ وعمره ست وثلاثون سنة . وابن هانيء شاعر مجيد غزير الانتاج الشعري ، وقد قال عنه الدكتور زاهد علي شارح ديوان ابن هانيء ان ديوانه من أهم الدواوين في اللغة العربية لوجوه ثلاثة :

١ ـ لانه ديوان أفضل شعراء المغرب .

٢ ـ لانه يشتمل على كثير من أمور الفاطميين .

٣ ـ لانه يبين أصول معتقدات الشيعة الاسماعيلية .

ابن هانيء في الاندلس :

ولد ابن هانيء ونشأ في (اشبيلية) في تلك الفترة الزاهرة بالعلوم والآداب ، وكان أبوه شاعرا أديبا ، فلا بد أن الشاب قد انغمس في هذا الجو العلمي ، وتنقل في حلقات العلوم والآداب يدفعه شعور نفسي ، ودافع ذاتي ، وتوجيه والده .. حتى نظم الشعر ، وبرع فيه ، كما كان من طلاب الفلسفة ، التي كان ينكرها العامة في الاندلس .

اتصل ابن هانيء بعامل المدينة لعبد الرحمن الثالث الاموي ، ونال عنده حظوة ومكانة رفيعة غير أنه مال الى اللهو والمجون ، وانغمس فيهما دون رادع أو وازع ، وغالى في قوله ، وجهر بآرائه الفلسفية المحرمة ، حتى اتهم بالزندقة ، وعمل الى جانب هذا حاسدوه ، على اقصائه ، فاجتمعت على الشاب العوامل ، ونقم عليه أهل المدينة ، حتى اضطر سيده الى اقصائه ، فأشار عليه بالغيبة عن المدينة ، مدة ينسي فيها خبره ، فانفصل عنه الى غير رجعة ، وعمره لا يتجاوز السابعة والعشرين . وقد ضاعت كل مدائحه لهذا الامير مع هذه الاقامة الطويلة والصحبة الحسنة .

وقيل ان سبب نقمة الناس عليه انه كان يعتقد بالخلفاء الفاطميين بالمغرب ، وهو عندي من أبعد الاسباب .

في عدوة المغرب :

خرج الشاعر الى عدوة المغرب مضطرا ، اذ لم يكن باختياره أن يفارق مباهج الارض الاندلسية ، ومرابع الشباب ، ومجلس سيده ، الذي كان حريصا عليه ، ولولا نقمة الناس عليه لما أوعز اليه بالخروج ، أو لعله أشار عليه بالخروج الى بلد آخر دون أن يخطر له في بال أن يصير الى الفاطميين ، لهذا نرجح أن الشاعر رحل الى الفاطميين غاضبا ، ولا بد أن الامويين حاولوا منعه من الوصول اليهم ، ولقي في سبيل ذلك المتاعب أثناء رحلته الى القيروان ، وحارب بعض رجالهم الذين أرسلوا لهذه الغاية ، وذكر ذلك في بعض قصائده ومفاخره .

ولقي هناك جوهرا الصقلي ـ مولي المنصور بالله ـ وامتدحه فاعطي مأتي درهما فاستقلها ، ثم اتصل بجعفر بن علي بن حمدون المعروف (بابن الاندلسية) والى المسيلة ومدح أخاه يحيى فبالغا في اكرامه ، ومن قوله في جعفر :

أنتم ذووا التيجان من يمن ، اذا
عـد الشريف أرومـة ونصابـا
ان تمتثل فيهـا الملـوك قصوركـم
فلطالما كانـوا لها حجابـا
ولـو أن أوطـان الديـار نبت بكـم
لسكنتم الاخلاق والآدابـا
يـا شاهـدا لي أنـه بشر ، ولـو
أنبأتـه بخصالـه لارتـابا

وفيه يقول :

لو شق عن قلبي ، امتحان وداده
لوجدت من قلبي عليه حجابـا
آليت أصـدر عن بحـارك ، بعدمـا
قست البحار بهـا فكن سرابا

ومدح أيضا أبا الفرج محمد بن عمر الشيباني :

حلفت بالسابقـات البيـض واليلب
وبالاسنـة ، والهندية القضب
ولـو أشـرت الى مصر بسوطك لـم
تحوجك مصر الى ركض ولا خبب
ولـو ثنيت الى أرض الشـام يـدا
ألقت اليك بايدي الذل من كثب

ومات ابراهيم ابن جعفر فرثاه الشاعر :

وهب الدهـر نفيسا ، فاسترد
ربمـا جـاد بخيل ، فحسـد
انمـا أعطي فواقـي ناقـة
بيـد شيئـا ، تلقـا ، بيـد

وماتت والدة جعفر فرثاها أيضا :

صدق الفنـاء ، وكـذب العمر
وجل العظات ، وبالغ النـذر
خرست ـ لعمر الله ـ ألسننا
لمـا تكلـم فوقنـا القـدر

مع المعز لدين الله الفاطمي :

لم تطل اقامة ابن هانيء عند والي المسيلة جعفر بن علي اذ نما خبره الى المعز لدين الله الخليفة الفاطمي في القيروان ، فطلبه اليه ورحل اليه وأقام بها عنده ، ومدحه بغرر قصائده وعيون شعره ، وبالغ المعز في

الانعام عليه ، وكان يفضله على جميع شعرائه ، ٠٠ ولما رحل المعز الى مصر تخلف ابن هانيء ولا ندري سبب تخلفه ـ ولما بلغ المعز خبر مقتله حزن عليه حزنا عميقا وقال : لا حول ولا قوة الا بالله هذا رجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذلك ٠٠ وهذا دليل على تقدمه عنده وتفوقه على أقرانه ٠

قال من قصيدة يمدح بها المعز ويهنئه بشهر رمضان :

هو علة الدنيا ومن خلقت له
ولعة ما كانت الاشياء
من صفو ماء الوحي وهو مجاجة
من حوضه الينبوع وهو شفاء
من أيكة الفردوس حيث تفتقت
ثمراتها وتفيأ الافياء
من معدن التقديس وهو سلالة
من جوهر الملكوت وهو ضياء
ليست سماء الله ما ترونها
لكن أرضا تحتويه سماء
هذا الشفيع لامة يأتي بها
وجدوده لجدودها شفعاء

وهكذا يستمر في مديحه وبيان خلاله وصفاته العلية بكثير من المبالغة والمغالاة مستخدما ما يعرفه من ضروب العلوم الفلسفية والمنطق ،٠٠ الى أن يقول :

نزلت ملائكة السماء بنصره
وأطاعه الاصباح والامساء
والفلك والفلك المدار وسعده
والغزو في الداماء والدماء
والدهر والايام في تصريفها
والناس والخضراء والغبراء
فاذا بعثت الجيش فهو مشيئة
واذا رأيت الرأي فهو قضاء

وفي قصيدة أخرى يمدحه بأن الناس أذلة لديه ، والملوك أذلة عبيد له ، باشارته تسير الاكوان غلب الروم وحمي الثغور فاق الامويين في الاندلس ، والعباسيين في الشرق ، ويستدل على الله به :

وأنت معد وارث الارض كلها
ومذ حم مقدور ، وقد خط مكتوب

ويقول معرضا ببني العباس وفتح الشام بعد أن فتحت مصر :

تقول بنو العباس هل فتحت مصر
فقل لبني العباس قد قضي الامر

وقد جاوز الاسكندرية جوهر
تطالعه البشرى ، ويقدمه النصر
بني نتلة ، ما أورث الله نتلة
وما نسلت ، هل يستوي العبدوالحر
أدار كما شاء الورى ، وتحيرت
على السبعة الافلاك أنمله العشر
أرى مدحه ، كالمدح لله ، انه
قنوت ، وتسبيح ، يحط به الوزر

ومن مدائحه المبالغة المغالية قوله :

ما شئت لا ما شاءت الاقدار
فاحكم فأنت الواحد القهار
وكأنما أنت النبي محمد
وكأنما أنصارك الانصار

يظهر أن عطايا الخليفة كانت تساوي هذه المدائح الجبارة ، والاقوال كثيرة حول هبات الشاعر من الاموال والخلع والخيول والعطايا ٠٠ مع أن صحبة الشاعر الكبير للخليفة العظيم لم تطل كثيرا اذ لا تزيد على عشر سنوات انتهت برحيل المعز الى مصر ، ويأفل نجمه ويقتل غيلة كما تقدم ٠

جوانب أخرى من شخصيته وشعره :

١ ـ غزله : كان للشاعر قلب حساس بالجمال وعاطفة حية ، كان من نتاجها انغماسه باللهو والمجون ومع ذلك لم يحفظ لنا الديوان الا مقطوعات قليلة قصيرة جاءت نسيبا في أول قصائده في المدح كقوله في أول قصيدة من الديوان يمدح بها المعز :

الحب حيث المعشر الاعداء
والصبر حيث الكلة السيراء
ما للمهارى الناجيات كأنها
حتم عليها البين والعدواء
بانت مودعة فجيد معرض
يوم الوداع ونظرة شزراء

وقوله :

أضم عليها أضلعي وكأنها
من الذعر نشوى ، أو تطرقها لمم
أميل بها ميل النزيفة مسندا
الى الصدر منها ناعم الصدر قد نجم

ثم يذكر كيف زارها ليلا ، وكيف كانت خائفة مذعورة ، وأن الحي نذروا به ، ولكنه تسلل دون أن يشعر به أحد ، كما يصف صراعه مع الذي تبعه ، وقتله اياه ، في أسلوب يذكرنا بمغامرات عمر بن أبي ربيعة ولياليه ٠

٢ ـ خمرياته :

ولابن هانيء مقطوعات كثيرة في الخمرة ، في وصفها ووصف الحانة ، وأصحابها والسقاة والسكارى :

ولم يبق ارعاش المدام ، له يدا
ولم يبق اعنات التثني له عطفا
نزيف قضاه السكر الا ارتجاجة
اذا كل عنها الخصر حملها الردفا
فمن كبد تدني الى كبد هوي
ومن شفة ، توحي الى شفة رشفا

٣ ـ وصف الطبيعة :

له في وصف الطبيعة قصائد ، وأبيات في ثنايا قصائده الاخرى تدل على مدى ولعه بالطبيعة وتأثره بها ومبلغ احساسه بمحاسنها ومباهجها قال يصف السحاب :

بين السحاب وبين الريح ، ملحمة
فقاقع وظبي في الجو تنخرط
كأنه ساخط يرضى على عجل
فما يدوم رضى منه ولا سخط
أهدي الربيع الينا روضة أنفا
كما تنفس عن كافوره السفط
البرق يظهر في الآلاء غرته
قاض من المزن في أحكامه شطط

٤ ـ الرثاء :

أما الرثاء فقليل في شعره ، ولم يرد في ديوانه سوى قصيدتين اثنتين ، تزيد الواحدة منهما على خمسين بيتا ، الاولى في ابراهيم ابن جعفر بن علي ، والثانية في رثاء الوالي نفسه ، وقد تقدم الحديث عنها . والطابع العام لرثائه هو الاكثار من الحكم والامثلة التاريخية من حياة العظماء والملوك ، والدعاء للميت بالمغفرة ، ولاهله بالصبر والسلوان .

٥ ـ الهجاء :

أما هجاؤه فقليل أيضا ، ويكتفي بتجريد المهجو من الفضائل ، ويلوم الدهر اذ ساعد المهجو ورفعه ، ويرميه بالسخف . قال يهجو أحدهم :

طلب المجد من طريق السيوف
شرف مؤيس لنفس الشريف
ان أيام دهرنا سخفات
فهي أعوان كل وغد سخيف
ان دهرا سموت فيه علوا
لوضيع الخطوب وغد الصروف

وقد يعمد الى المبالغة والتصوير الساخر ، كما في قوله في رجل أكول :

انظر اليه وفي التحريك تسكين
كأنما التقمت عنه التآنين
تبارك الله ما أمضي أسنته
كأنما كل فك منه طاحون
كأنما الحمل المشوي ، في يده
ذو النون في الماء لما عضه النون

نظرة عامة :

ان الدارس لشعر ابن هانيء الاندلسي يلاحظ شيئين اثنين ١ ـ طابع المبالغة وخاصة في مدحه .
٢ ـ ضعف العاطفة .

أما المبالغة فنحن أمام افتراضين ، الاول أن الشاعر كان شديد الاعجاب بممدوحه وكان يكبره ويجله .. ويؤيد هذا بعض الروايات القائلة أن سبب كره الناس له في الاندلس كان حبه للفاطميين ثم ما غص به الديوان من مدح وغلو في هذا المدح .. وينقض هذا الفرض من وجه آخر أنه كان من طلاب الفلسفة وأن نظرته أقرب الى الواقعية واعتباره للانسان مهما علا يظل انسانا .

أما الافتراض الثاني أنه لا يحبه هذا الحب ولا يجله هذا الاجلال الظاهر في شعره ويؤيد هذا الفرض طموح الرجل وثقافته العالية الفلسفية التي ضحى من أجلها وهجر وطنه حفاظا عليها واتهم بالزندقة من جرائها . ويبعد عنده ويستحيل في ادراكه أن تطيع العوالم رجلا وان كان خليفة .

والذي نراه : أن الشاعر قد طلب الفلسفة فعلا ، واتهم بالزندقة والمجون ، ولم يتهم بحبه للفاطميين الا بعد رحيله اليهم ، وبسبب فلسفته وعلو همته هانت عنده العوالم والاكوان ، ولم يعد يرى فيها القدسية والسر الالهي ،.. فلا بأس لديه أن يتاجر بهذه الاشياء الكونية ويضعها تحت تصرف الخليفة ، مستغلا ادعاء الخليفة القرابة من رسول الله ، والعلم ، والالهام ، ووراثة العلم والملك .. مقودا بالعطايا والهبات الكبيرة المتناسبة مع ايغال الشاعر في دربه الوعرة الشائكة .

أما ضعف العاطفة : فالشاعر كان أبي النفس طموحا لا شك في ذلك ـ وقد رأينا سبب مغالاته ولكننا

لم نلمس في مدحه ضعفا ولا مذلة – لهذا كانت انفعالاته آنية سطحية قائمة على التهويل والمبالغة في مدحه ، والحكمة في الرثاء والامثال في التعزية دون بكاء او تفجع .. شأنه في ذلك شأن المتنبي ، كذلك اذا تغزل وصف دون أن يبلغ ذلك أعماقه ، أما الطبيعة فقد كان قادرا على الذوبان فيها والانغماس في مباهجها ، حيث يجد فيها فسيحا لآماله ومنطلقا لاحلامه ومطامحه :

ألا أيها الباكي على غير أيكة
كلانا فريد ، بالسماوة مغلوب
فؤادك خفاق ووكرك نازح
وروضك مطلول ، وبانك مهضوب
هلم ، على أني أقيك بأضلعي
وأمسك دمعي عنك وهو شآبيب
فلا شدو الا من رنينك شائق
ولا دمع الا من جفوني مسكوب

كنا نتوقع أن يمثل ابن هانيء البيئة الاندلسية الجديدة ولكن عوامل التقليد غلبت عليه فاصطبغ شعره باللون البدوي ، في الاسلوب والمعاني ، فقد وصف الرمال والصحاري والابل وسيرها والحبيبة في هودجها كما وصف رحلته الى الممدوح والآرام والعقبان .. الا انه لم ينس الطبيعة الاندلسية الجميلة ، فوصف البساتين والسواقي والطيور المغردة على أيكها .

مع المتنبي :

سمي ابن هانيء (متنبي المغرب) لكثرة ما شاع في شعره من وجوه الشبه بشعر المتنبي كما كانا متعاصرين .

غير أن ابن هانيء ظل بعيدا عن المتنبي ، بعد التقليد عن الطبع ، فقعقعة ألفاظه ، وتشابيهه الغريبة وصوره البراقة ، تستر وراءها معاني مطروقة أو ضعيفة مبتذلة .

ومن وجوه التشابه بينهما وامتاز به المتنبي قوله :
كل حلم أتى بغير اقتدار
حجة لاجيء اليها اللئام
وقول ابن هانيء :
وكل أناة في المواطن سؤدد
ولا كأناة من قدير محكم
كما فاقه في وصف الخيل :
وجرد مددنا بين آذانها القنا ..
وتفوق ابن هانيء على المتنبي في الرثاء عامة لا سيما قوله :
وهب الدهر نفيسا فاسترد
ربما جاد بخيل فحسد

وفي قوله في الفخر :
وأنا الذي اجتلب المنية طرفه
فمن المطالب ، والقتيل الطالب
وقول المتنبي :
الخيل والليل والبيداء تعرفني
والضرب والطعن والقرطاس والقلم

وأخيرا : ان في أحدهما ما ليس في الآخر من الخصوصيات المحمودة ، فالمتنبي ألطف عبارة ، وأعمق معنى ، وأجد ديباجة ، وأجمل مطالع ، وأغزر حكما وأمثالا ..

أما ابن هانيء ، فأغزر كلاما ، وأطول قصائد ، وأقوى عارضة وخيالا ، يقلب المعنى على وجوهه المختلفة ، ويكشف عن جوانبه وحواشيه ..

وقد وصف ابو العلاء المعري شعر الشاعرين فقال عن شعر المتنبي (معجزأ حمد) ووصف شعر ابن هانيء لما سمعه (انه كالرحى تطحن قرونا) ولا يخفي ما في هذا القول والنقد من التجني على ابن هانيء ان صح ، فضلا عما نعرفه من ميل المعري الى المتنبي وتعصبه له .

كويت : حسن الخطيب

القارب المكشوف

بقلم الكاتب الامريكي : ستيفن كرن

تعريب محمود يوسف فلاحة

لم [illegible] واحد منهم لون السماء فهم جميعا يحدقون أمامهم ، وقد [illegible] أبصارهم بالموج المتدافع اليهم ، بلونه الاسود القاتم الا في الاعالي حيث كان أبيض مزبدا ٠٠ والافق [illegible] ، يرتفع وينخفض ، وأطرافه قد تثلمت بالموجات التي بدت ، وهي ترتفع بحواف كالصخور ٠

والقارب الذي يمخر الماء بهم لا يزيد في حجمه على حجم نصف برميل ، والموجات حوله طويلة فظة لا مثيل لها في سوئها وهمجيتها ٠٠ وأمام قارب صغير كهذا كانت قمة الرغوة مشكلة كبرى ٠

جلس الطباخ القرفصاء في القاع ، ونظر بكلتا عينيه الى حافة القارب التي تفصله عن ماء المحيط ، بثخانة لا تزيد عن ستة انشات ، وقد لف اكمام صديره حول [illegible] ، وهدبا الصدير المفتوح يتذبذبان أمامه كلما انحنى لينزح الماء من القارب ، وكم من مرة قال وعيناه مثبتتان في مياه البحر المتلاطم :ــ

ــ يا الهي ٠٠ انه لمأزق وأي مأزق ٠٠

وكان عامل الآلات ، يوجه القارب بأحد المجذافين ، وفي بعض الاحيان يرفع نفسه فجأة ليحفظ جسمه من الماء المندفع من مؤخرة القارب ، والمجذاف في يده كان صغيرا رفيعا ، آهلا للانقصاف في أي لحظة ٠

والمراسل يجذف بالمجذاف الآخر ، وهو يرقب الموج ، ويعجب ٠٠ لم كان هنا ٠

والقبطان المصاب ، راقدا في مقدمة القارب ، يلفه يأس عميق ، ولا مبالاة تصيبان في مأزق كهذا على الاقل ، حتى أشجع الشجعان وأحزمهم ، حين طوعا أو كرها ، يخور العزم ، وتتساقط الجيوش ، وتغرق السفن ٠

وفكر ربان أية سفينة متأصل في عوارضها الخشبية ، مع أنه قد يقودها يوما او عقدا ، وكان يجثم فوق رباننا تأثر كئيب لمنظر سبعة وجوه في غبش الفجر ، ثم صورة عقب صار كبير بكرة بيضاء في أعلاه تضرب الماء أماما وخلفا ، ثم انهيارها رويدا رويدا حتى الماء ٠٠ وفي صوته أمر غريب يبدو بين حين وآخر ٠٠ فعلى رغم ثباته ، الا انه كان مفعما بأسى لا يمكن وصفه بالكلام أو الدموع ٠٠ فقال لعامل الآلات :ــ

ــ اتجه أكثر قليلا الى الجنوب ٠٠ بيلي ٠

فردد عامل الآلات من مؤخرة السفينة :ــ

ــ أكثر قليلا باتجاه الجنوب ٠

مقعد في هذا القارب ، لم يكن يختلف عن مقعد فوق حصان بري جامح ، والحصان البري لم يكن يصغر هذا القارب كثيرا ٠٠ وهو يقفز ويغوص كالحيوان ، ويبدو ، حين يعلو موجة قادمة ، كالحصان الذي يجتاز حاجزا مرتفعا ، وهيئة زحفه فوق هذه الجدر المائية أمر كالخيال ، وعند أعلى كل موجة ، كانت المشكلة تكمن في الزبد الابيض المتحدر من ذروتها ، والذي يتطلب قفزة أخرى في الهواء ، وحين تهبط القمة مزدرية بهذا القارب ، فانه ينزلق بسابقها ، وينحدر مرتفعا منخفضا أمام التهديد التالي ، وهو يثير الرذاذ حوله ٠

وأحد الافكار أمامه ، هو في حقيقة اكتشاف موجة أخرى بعد النجاح في امتطاء الموجة الاولى ، وهذه تكون في ذات خطورة الاولى ، ولها الحماسة عينها تقدم شيئا فعالا في سبيل القوارب الغارقة ٠

ويستطيع المرء في قارب طوله عشرة أقدام أن يدرك مصادر قوة البحر في خط الامواج فيه وهذا الخط غير محتمل تنعدم أمامه الخبرة في قارب كهذا ، فمع اقتراب كل جدار أقتم من الماء ، ينغلق كل شيء أمام نظر الرجال ، ويتصورون أن هذه الموجة ستكون آخر اندفاعة للمحيط ، آخر محاولة للمياه المزمجرة ، وفي حركاتها هذه تكمن رشاقة رهيبة ، فهي تأتي صامتة الا من زمجرة أعاليها ٠

أما وجوههم فلا بد وأن تكون شاحبة في الضوء القاتم ، وعيونهم لا بد وأن تكون لامعة بطرق غريبة ، لانهم دائموا التحديق أمامهم ، ولو نظر اليهم من عل ، لبدت للاعين حالهم ذات حيوية وبهجة غريبتين ، الا أنه لا وقت لديهم ليروه ، ولو وجدا بعض المتسع لكانت هنالك أمور أخرى تشغل أذهانهم ٠

* * * *

بدأ قرص الشمس يزحف في قبة السماء ، فعرف الرجال أن اليوم أمامهم سيكون طويلا اذ أن ماء البحر قد حال من القتامة الى لون زمردي أخضر ، تخططه أشعة عنبرية ، بينما الزبد كان كندف الثلج ، أما تقدم النهار

فلا يعونه ، بل كانوا يعون أثره فقط فوق الامواج المتدحرجة اليهم .

في جمل متقطعة ، تحادث الطباخ والمراسل ، حول الفرق ما بين محطة انقاذ وملجأ ـ فقد قال الطباخ :

ـ هنالك ملجأ جنوبي منارة مدخل الموسكيتو .. وحالما يروننا .. فسيقدمون في زوارقهم ويلتقطوننا ..

ـ حالما يرانا .. من ؟ ..

البحارة ..

ـ لا بحارة في الملاجيء .. فهي كما أفهمها أماكن خزن الملابس والاطعمة كي يفيد منها من السفن المحطمة .. فلا بحارة فيها ..

ـ نعم ؟ .. فيها بحارة ..

ـ لا .. ليس فيها ..

فأجابه الطباخ :ـ

ـ حسنا .. ربما لم يكن ذاك الذي أفكر فيه قرب منارة مدخل الموسكيتو ملجأ .. ربما هو محطة انقاذ ..

فقال عامل الآلات من المؤخرة ..

ـ ولكننا لما نصل هنالك بعد ..

* * * *

حين كان القارب يقفز من أعلى كل موجة ، وحين كانت مؤخرة القارب تصل الماء ثانية كان الرذاذ متناثر الى مقربة منه وهذه الذرى المائية تلال يرى الرجال منها لحظة متسعا صاخبا عريضا لامعا متلاطما ، بينما الريح تعبث رؤوسهم العارية ..

وربما كان فاخرا ممتعا ، مرح هذا البحر الطليق الغريب بأحتوائه الخضراء والبيضاء والعنبرية ومن بين هدوء الرجال انطلق صوت الطباخ :ـ

ـ إنه لشيء جميل أن يصبح اتجاه الريح نحو الشاطيء .. واذا لم يفعل .. فأين سنكون واننا لن نرى شيئا .. فأجابه المراسل ..

ـ ذاك حق ..

وحتى عامل الآلات رأسه موافقا ..

أما الربان فقد قهقه من المقدمة بطريقة تحمل التسلية والهزء والاسى ، وقال :ـ

ـ أتظنون أننا حصلنا على شيء كثير من الرؤية الآن أيها الرجال ..

فصمت من ثمة الثلاثة .. الا من نحنحة وتأتأة بسيطتين ، وقد أحسوا بالطفولة والغباء لو عبروا عن أية ذرة من التفاؤل .. غير أنهم أبقوا هذا الاحساس في صدورهم .. فالشاب يفكر بعناء في أوقات كهذه ، وأخلاقية وضع كهذا ، من ناحية أخرى ، كانت تحارب أي اقتراح بالخيبة واليأس لذا فقد ضمتوا .. الا أن الربان قال ملاطفا أطفاله :ـ

ـ حسنا .. سنصل الشاطيء على أية حال .. ولكن كمن في لهجته ما جعلهم يفكرون .. فقال عامل الآلات :ـ

ـ نعم .. اذا توقفت هذه الريح ..

وردد الطباخ وهو ينزل الماء من قاع القارب ..

ـ نعم .. اذا لم نذهب الى الجحيم بين مويجات الشاطيء المتلاطمة ..

كانت نوارس الماء تطير مقتربة مبتعدة ، وقد تقف أحيانا على سطح الماء ، قرب رقع حشائش البحر ، جماعات هادئة ، بينما الرقع سهتز بحركة الموج في حركة تشبه اهتزاز البسط المفروشة نوء ، وكم حسدها من في القارب ، لان غضب الماء لم يكن ليهمها أكثر من اهتمام سرب من فراخ السهوب في أرض تبعد ألف ميل عن الشاطيء ، وكثيرا ما دنت هذه الطيور وحدقت بالرجال بأعينها الخرزية السوداء ، وكانت في لحظات كهذه غير لطيفة ، بل ان الشؤم كان يملأ أعينها المتفحصة التي لا تطرف ، فكان الرجال ينعقون غاضبين ليبعدوها .

وقدم أحدها وكان يود الوقوف ، كما اتضح فوق رأس الربان ، فقد طار أفقيا نحو القارب من غير أن يتعرج ، لكنه قفز قفزات جانبية فعل الفراخ ، وعيناه السوداوان مثبتتان بلهفة فوق رأس الربان .. فخاطبه عامل الآلات :ـ

ـ أيها الوحش البشع .. انك تبدو كما لو أن مدية قد كونتك .

وشتم الطباخ والمراسل كئيبين الطير ، وتمنى الربان لو يصرعه بطرف الحبل الغليظ ، الا أنه لم يجرؤ على فعل ذلك ، لان أية حركة تشبه تكشيرة جازمة قد تقلب هذا القارب المضطرب ، فأزاح الربان الطير عنه بلطف وعناية ، وحين يئس الطير من الملاحقة ، تنفس الربان الصعداء ، وكذلك فعل الآخرون لان الطير صدم أذهانهم تلك اللحظة على أنه مخيف ونذير شؤم .

وكان المراسم وعامل الآلات يجدفان ويجدفان ، وهما جالسان معا على ذات المقعد ، وفي يد كل منهما مجذاف يعمل به ، ثم تناول عامل الآلات كلا المجذفين ، ثم تناولهما المراسل ، فعامل الآلات فالمراسل وعملا وعملا .. وحين كان يأتي دور واحد في مؤخرة القارب للعمل .. تأتي اللحظة الحرجة ، وأقسم بأعظم نجم صدق أن سلب بيضة من تحت دجاجة أكثر سهولة من تبادل مقعدين في قارب ، فقد كان الرجل في المقدمة يزلق

يده أولا على المقعد الذي يجلس عليه ماسك المجذاف ، ثم يتحرك بعناية وكما لو أنه فخار هش ، ويزلق الرجل المجذف يده على المقعد الآخر ، بعناية بالغة ، وحين يصبح الرجلان متجاورين ، يثبت الاثنان الباقيان أعينهما على الموجة القادمة ، ثم يصرخ الربان :ـ

ـ الامر تمام الآن ٠

وبقع الحشائش البنية التي كانت تظهر بين وقت وآخر كانت كسرات من الارض ، كالجزر ، ساكنة لا تسلك هذه الطريق أو تلك ، وهي بشير للرجال في القارب أن قاربهم يقترب بطيئا الى اليابسة ، وقال القارب « المقرفص » حذرا في المقدمة ، بعد أن علا القارب موجة كبيرة انه رأى المنارة في مضيق موسكيتو ، فأنبأهم الطباخ حالا انه رآها ، والمراسل على المجذافين آنئذ رغب ، لسبب ما ، أن يراها هو أيضا ، الا ان ظهره كان مواجها الشاطىء البعيد ، والامواج عاتية ، لم يستطع لعتوها أن يغتنم أية فرصة ليدير رأسه ، الا أن موجة أقل عتوا من الاخريات قدمت الآن ٠٠ وعلى ذروتها راد الافق الغربي بعينيه ، فصرخ الربان :ـ

ـ هل رأيتها ؟٠٠

فأجابه المراسل متمهلا :

ـ كلا ٠٠ لم أر شيئا ٠٠

ـ نظر ثانية ٠٠

ثم أشار بيده ٠٠

ـ انها في ذاك الاتجاه تماما ٠٠

وعلى ذروة موجة أخرى ، فعل المراسل كما أمر ، فوقعت عيناه صدفة على شيء صغير ثابت في نهاية الافق المتذبذب ٠٠ شيء كرأس الدبوس تماما ٠٠ ومنارة على هذا الصغر لا تراها الا عين تترقب ٠٠

ـ أظن أنني لقطتها ٠٠ سيدي الربان ٠٠

فقال الربان :ـ

ـ اذا توقفت هذه الرياح ، ولم يغرق القارب فنستطيع عمل ما هو أكثر ٠٠

وتقدم القارب الصغير الذي يرفعه البحر المتلاطم ، فتتناثر المياه سيئة حوله في الذرى ، تقدم تقدما لم يكن ليلحظ لولا وجود أعشاب البحر ، تقدم وكأنه شيء صغير جدا يتقلب في الاعالي تحت رحمة محيطات خمسة ، واندفع فجأة اليه رشاش من الماء كالشرارات البيضاء فصرخ الربان ٠

ـ انزح الماء ٠٠ أيها الطباخ ٠

فأجاب الطباخ المبتهج :ـ

ـ حسنا ٠٠ سيدي الربان ٠٠

* * * *

ربما يصعب وصف ما بلغته أخوة هؤلاء الرجال الذين تربوا في البحر من تلاحم ، لا ٠٠ بل لم يوصلها أحد في وصفه الى هذه الدرجة ٠٠ لا بل لم يذكرها أحد ٠٠ لكنها قطنت القارب ، وأحس كل رجل أنها تدفئة ٠٠ فقد كانوا ، ربانا وطباخا ومراسلا وعامل آلات ، أصدقاء متلاحمين في رباط حديدي أندر مما هو معروف ٠٠ فالربان المصاب المتهالك على قدر الماء في مقدمة القارب يتكلم دائما بصوت خفيض هادىء ، لكنه لن يقود بحارة أكثر نشاطا وسرعة طاعة من هؤلاء الثلاثة المتباينين في القارب ، وكانت أخوة الجميع أكثر من اعتراف مجرد لما هو خير للسلامة العامة ، اذ أن فيها ، لا ريب ، صفة ذاتية يحسها القلب ٠٠ واذا تجاوزنا هذا الاخلاص لقائد القارب ، فهنالك تلك الزمالة المتسامحة ، حتى أن المراسل ، على سبيل المثال ، الذي نشأ متهكما على الناس ، عرف حتى في ذلك الوقت أن هذه الزمالة كانت حقا أحسن تجربة له في حياته ٠

ولحظ الربان شيئا فقال :ـ

ـ لو عندنا شراع ٠٠ نستطيع أن نجرب معطفي ، فنرفعه على طرف مجذاف ٠٠ ونعطيكما أنتما فرصة للراحة ٠٠

وهكذا أمسك الطباخ والمراسل بالصاري وقد نشر عليه المعطف ، ووجه عامل الآلات القارب فانطلق في سهولة أكثر بشراعه الجديد ٠٠

ثم بدأت المنارة تنفتح شيئا فشيئا بلونها المخادع ، فبدت كشبح شاحب في طرف الافق ، ولم يمكن منع الرجل الممسك بالمجذافين من أن يدير رأسه لينال لمحة من هذا الشبح الاقتم ٠٠

وأخيرا من على ذروة موجة ، استطاع الرجال في القارب المتقاذف رؤية اليابسة ، خيالا أسود ممتد على الشاطىء أقل ثخانة من حافة ورقة الكتابة حتى حين أصبحت المنارة شبحا مرتفعا الى السماء فقال الطباخ الذي نزل مرات عديدة على هذا الشاطىء في زوارق كبيرة ٠٠

ـ لا بد أن نكون تقريبا مقابل «سمايرنا» الجديدة سيدي الربان ٠٠

فقال الربان :ـ

ـ أصحيح ؟؟

وأخذت الريح تتلاشى ، ولم يكن على الطباخ والمراسل أن يبقيا مسمرين في مكانهما ليرفعا المجذاف بالشراع ، الا أن الامواج استمرت في عتوها وهجماتها على القارب ، يناضل كالجريح فوقها ، فأمسك الطباخ والمراسل المجذافين وتناوبا عليهما ثانية ٠٠

ان كارثة تحطم السفن تكون نتيجة للاشيء ، ولو أن الرجال يدربون خصيصا للحظة كهذه وحلت هذه الكارثة حين يكون الرجال قد بلغوا صفوة النضج ، فلا شك أن حالات الغرق تقل في البحر فمن الاربعة فوق القارب لم ينم واحد منهم نوما يستحق الذكر ليومين قبل نزولهم في القارب وقد نسوا أيضا أن يأكلوا بشهية في فترة الاضطراب التي نزلت بهم حين تسلقوا سطح السفينة الغارقة .

ولهذه الاسباب ولغيرها ، لم يكن عامل الآلات والمراسل راغبين في التجذيف آنئذ ، وعجب المراسل عجبا شديدا ، وباسم كل ما هو عاقل ، كيف ان هنالك من يحب التجذيف في قارب رياضة وتسلية ، فالتجذيف ليس تسلية ، بل هو عقاب جهنمي ، ولا يمكن لاصيل في خلله العقلي ان يستنتج منه شيئا سوى انه رعب للاعصاب ، وجريمة تقترف بحق العجيزة ، وذكر لرفاقه في القارب كيف خطر بباله ذات يوم التسلي بالتجذيف ، .. فابتسم عامل الآلات المنهمك بتعاطف تام ، ولنذكر هنا ان عامل الآلات عمل قبيل غرق السفينة ضعف زمنه في غرفة آلات السفينة ، ونظر الربان الى الرجال وخاطبهم :

– لا تأبهوا أيها الشباب لما نحن فيه الآن ، لا تنهكوا قواكم ، فلو كان علينا ان نجوز أمواج الشاطىء الصخري فستحتاجون الى كامل قواكم ، اذ أن علينا أن نسبح كي نصل .. تمهلوا ..

بدأت اليابسة تظهر شيئا فشيئا من وراء الافق ، وحال لونها الى لونين أسود وأبيض .. لون الاشجار والرمال .. فذكر الربان لهم انه يستطيع تبين بيت على الشاطىء .

فأوضح الطباخ :–

–انه لا ريب بيت الملجأ ، وسيروننا حالا ويأتون للبحث عنا .

فقال الربان ثانية وقد تعالت المنارة البعيدة :–

– يجدر بالحارس ان يتبيننا الآن ، لو كان ينظر في منظار مكبر ، وسينذر رجال الانقاذ ..

فعقب عامل الآلات بصوت خفيض :–

– لا قارب من الآخرين قد يكون بلغ الشاطىء ليعلم عن الحطام .. والا لكانت قوارب الانقاذ تبحث عنا ..

وتبلجت اليابسة بطيئة من البحر أكثر جمالا .. ثم عادت الريح وقد تبدلت من شمالية شرقية الى جنوبية شرقية ، فطرق أسماع الرجال في القارب أخيرا صوت جديد .. كان هدير الامواج بين صخور الشاطىء .. فقال الربان :

– لا يمكن لنا أن نصل المنارة الآن..أدر حيزومه أكثر قليلا الى الشمال .. بيلي .

فردد عامل الآلات :–

– اكثر قليلا الى الشمال ..

فاستدار حيزوم القارب من ثمة مرة أخرى ليصبح مع سير الريح ، وراقب الجميع ، ما عدا الرجل على المجذاف الشاطىء وهو يتضخم ، وبتأثير هذا التضخم بدأ الشك والتشاؤم يهجران عقول الرجال ، بينما دفع سير القارب لا زال منهمكا .. الا ان الابتهاج الهادىء تسرب الى نفوسهم ، ففي ساعة ربما سيكونون على الشاطىء .

لقد استعملوا بمهارة أعمدتهم الفقرية لحفظ توازن القارب ، وهم يمتطون كرجال السرك هذا المهر الوحشي ، والماء حولهم ، وقد ظن المراسل انه تبلل حتى الجلد ، ولكن حدث وهو يتحسس الجيب الاعلى من معطفه ان وجد فيه ثمانية سيجارات ، أربعة منها قد تبللت بماء البحر ، والاربعة الاخرى جافة تماما ، وعثر أحدهم بعد بحث على ثلاثة عيدان كبريت جافة ، فمن ثم فان الرجال المتشردين الاربعة في هذا القارب الصغير ، نفخوا دخان السيجارات ، بينما يشع من عيونهم بريق الثقة ، الثقة بالنجاة ، وحكموا بالخير او بالشر على كل من عرفوا .. ثم تناول كل واحد منهم جرعة ماء .

* * * *

البقية في العدد القادم

تحقيق صحفي مع محمود الخطيب

بقلم : نوال سالم

الكاتب الذي اثار ضجة عنيفة في عالم القصة ، يتكلم بصراحة ٠

قال عنه الناس : انه متشائم ٠ ينظر الى الحياة من زاوية خاصة ٠ وقال عنه الادباء : انه خير من كتب القصة وقدمها بأجمل اسلوب ، ثم جعل للكلمة قيمة والبسها ثوبا جميلا ٠ امتاز بدقة التصوير وعمق الفكرة فابدع ٠

جئته في نادية بعد موعد ٠ كان مطرقا ، يفكر ، وعيناه تثقبان الارض بقوة وقد بدا كل شيء في شخصه كئيبا ٠

قال له الجرسون بالانكليزية : سيدي ، شخص يطلبك ٠ فالتفت الي ورفع حاجبيه بحركة غريبة ثم نهض ومد لي يده مصافحا وقال : لا بد انك ٠٠ ؟ قلت : نعم ٠ قال : تفضلي ، ثم اشار الى الجرسون وطلب لي فنجانا من الشاي ٠

جلست لبرهة اتطلع في ملامحه الهادئة.فرأيت فيها سكونا غامضا يستعصي على المرء فهمه ٠

قلت له : هل نبدأ ٠٠ ؟

قال : لا مانع ٠

– يتهمك بعض الناس بالنزعة التشاؤمية ، وبأنك تنظر الى الحياة من زاوية غامضة وليس من زاويتها الطبيعية فبماذا تبرر ذلك ؟

– لست أدري بماذا أجيب ، اذ ثمة اشياء كثيرة أخذت تراود مخي في هذه الفترة ٠ غير انني استوقف كل من يتساءل ليفكر ٠٠ ولو للحظة : هل حياتنا كلها سرور ؟ ٠ أليست هناك شوائب وآلام ٠ الانسان ، اله بحاله ، عظيم ، لكنه يعيش مخنوقا ، لا يعرف قيمة الحياة ، علقم في بطن الارض ، مر ، تتقيأ من جرائه ٠ هذا الانسان ، اله بحاله ، لكنه نجس ، يعيش على قمامة الدنيا ، كالصرصار ٠ ذبابة ، هو ، تبعث على الغيثان ، تحبو ، لتنشر الداء ٠

– انك تتعدى على حقوق الانسان هكذا ؟!

– انني انسان ، ولكن الم اصفه ايضا باله ؟٠

– يتهمك البعض الآخر بالوجودية ؟٠

– الكشف عن خطأ مبدأي او عقائدي ليست وجودية ٠

– الظاهر في قصصك انك تهتم بالاسلوب والكلمة كما تهتم بالفكرة ، أي انك تعطي الجملة نغمة موسيقية تجعل الانسياب فيها حلوا مرغوبا كما تعطي عمق الفكرة ٠

– ومن قال لك ان الاسلوب والكلمة يقلان من حيث الاهمية عن الفكرة ٠ الكاتب يبدع اذا جمع بين الثلاثة ٠

– بصفتي واحدة من الجنس الناعم اتهمك بالتحامل علينا في قصتك « نفسي الضئيل » التي نشرت مؤخرا في مجلة الثقافة ؟٠

فتبسم واطلق آهة ثم قال :

– كثرة الاتهامات تولد القلق ٠ لكن ، ما ذنبي أنا ، انه جو قصة خلق ليعيش بهذا الشكل ، فهل تلومينني ؟٠

– تقوم الآن معركة حامية بين فئتين ٠ الفئة الاولى تحاول الكتابة بالعامية ولا تعترف بالتراث الادبي ٠ والفئة الثانية تدافع عن اللغة العربية ولا تسمح بالتعدي على التراث ، فمن أي من الموقفين انت ؟٠

– انني ان اجبت على هذا السؤال ، انما اجيب على شيء مفروغ منه ، وهو ان التراث خالد لا يموت ٠ أما اولئك الذين يتعدون عليه فهم صغار صغار يعيشون على فتات الموائد ، وقد تفلسف أحدهم بما يلي : « اذا كان التراث ميتا فهل نموت معه » ولم يعلم ذاك انه هو الميت ٠ وقد فكر آخر بالكتابة بالحرف اللاتيني ٠

– هل تؤمن بالتجديد ؟

– ومن لا يؤمن بالتجديد ؟! ٠ التجديد شيء مرغوب ، وقد سعى اليه قبلنا ادباء خلدناهم ٠ ولكن ليس الذي يطلبه اولئك الاقزام تجديدا ٠

– ما رأيك في أدباء اليوم ؟

– معظمهم اصابه غرور ٠

– من يعجبك في كتابة القصة الطويلة ؟

– يعجبني محمد عبد الحليم عبد الله ، ومحمود تيمور ٠

– وما رأيك في السباعي ؟

– رأيي به كرأيي مجلة الثقافة ٠

– واحسان عبد القدوس ؟

ـ مراهق لا يخجل ·

ـ وفي القصة القصيرة ؟

ـ يعجبني عبد السلام العجيلي وزكريـا تامر وصباح محي الدين ·

ـ والشعراء ؟

ـ يعجبني من الشعراء أربعـة : مدحـة عكاش ، ونديم محمد ، وحامد حسن من الاقليم الشمالي ، وامين نخلة من لبنان ·

ـ ما رأيك في نزار قباني ؟

ـ مجدد ، سقط من عيني عندما تهجم على المتنبي ·

ـ ما رأيك في كاتباتنا ؟

ـ تعجبني منهن بنت الشاطيء بالرغم من تحيزها ·

ـ يقدر الذين يقرأون اسلوبك بانك لا تقل سنا عن الاربعين ، ولكنني فوجئت الآن انك عن هذه النسبة بعيد جدا ، فكم حقيقة عمرك ؟

ـ عمري اتركيه لنفسي ·

ـ هل تخفيه ؟

ـ لا ، ولكنه لا يهم القاريء ·

ـ واذا اصر أحدهم على معرفته ؟

ـ الاصرار في بعض الاحيان قبيح ·

ـ انك تجيب على الاسئلة بلباقة ؟!!

ـ هذه احد ى صفات المتشائم !!

ـ هل تستطيع ان تعطينا رأيا في بعض ادبائنـا الكبـار ؟

فقـال بعد ان تحرك في مكانه ببطء :

ـ من منهم ؟

ـطه حسين مثلا ؟ ·

ـ غني عن كل رأي ·

ـ العقـــاد ؟ ·

ـ خدم الادب بكل ما اوتي من [illegible]

ـ ميخائيل نعيمة ؟

ـ كاتب اممي ، له طبقة معينة [illegible] ·

ـ ما رأيك في نذري أباظة ؟

ـ عقله كسمك نظارته ·

ـ والآن ، هل لك نتاج ادبي جديد ؟

ـ نعم ، مجموعة قصصية تصدر قريبا عن دار الثقافة في دمشق ·

ـ ما اسمها ؟

ـ لم يعرف بعد ·

ـ هل تخفيه أيضا ؟

ـ صدقيني لا ·

فضحكت ثم ودعته وهو يقول بابتسام [illegible]

لا تكوني قد أخذت علي مأخذا · ثم سلك [illegible]

نوال سالم